مذكرات بوغلافية

إنطباعات .... وحقائق .... وآراء..

تأليف

دكتور سيد عويس

الخبير بالمركز القومى للبحوث
الاجتماعية والجنائية

١٩٦٤

يطلب من
مكتبة القاهرة الحديثة
١٦٩ شارع التحرير بالقاهرة

دار الحمامي للطباعة
شارع الجيش - كنيسة الأرمن

محتويات الكتاب

الموضوعات — رقم الصفحة

تصدير

ان «مذكرات يوغسلافية» تعكس بعض الخبرات والتجارب فى خلال مدة زيارتى لجمهورية يوغسلافيا . وهى خبرات وتجارب عشتها فى خلال الفترة من ٦ نوفمبر ١٩٦٣ إلى ٦ فبراير ١٩٦٤ . حيث يسرت لى هيئة الأمم المتحدة هذه الزيارة ، إذ منحتنى منحة الزمالة لتتاح لى فرصة الإطلاع على الدراسات الإجتماعية والجنائية التى تقوم بها الهيئات المتخصصة فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . .

وأننى إذ أنشر هذه المذكرات ، فى المرحلة التاريخية الحالية التى يمر بها مجتمع الوطن العربى المعاصر ، أرجو أن تفيد القارىء العربى . فهى مادة للمعرفة أولا . . وهى ، ثانياً ، مادة للمقارنة . .

وأرجو أن أكون قد وفقت . . . . .

مايو ١٩٦٤

سيد عويس

مقدمة

عندما تأكد سفرى إلى يوغسلافيا ، أعددت نفسى ، ذهنياً ونفسياً ، لأكتب « مذكرات يوغسلافية » . لقد سافرت، من قبل، إلى الخارج مراراً وتكراراً . . سافرت إلى أوربا الغربية (انجلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا واليونان) . . ، وسافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية . . وكذلك سافرت إلى سوريا وإلى لبنان . . ولم أعن بكتابة مذكرات ، أو غيرها ، عن مجتمعات هذه البلاد . . كنت أتوقع أنه عند عودتى إلى بلادى الحبيبة أستطيع كتابة ما أشاء عما أشاء . . . ويبدو أننى كنت متفائلا . . لأننى لم أستطع أن أفعل شيئاً من ذلك . لم أجد ، بسبب طبيعة عملى ، وقتاً كافياً أو حتى وقتا غير كاف للقيام بهذه المهمة . . ولكننى لم أحزن كثيراً لذلك . . لأن الكثير من العلماء والأدباء ورجال الصحافة ، المتخصصون منهم وغير المتخصصين ، قد كتبوا عن هذه المجتمعات من قبل . . وقد كتبوا كثيراً . . كل من وجهة نظره . . وفى ضوء خبراته . . صحيح أن خبراتى ووجهة نظرى قد تختلف وتتفاوت . . لأننى ، بالضرورة ، شخص آخر . . وكل شخص ، مهما تشابهت السمات ، فى الواقع ، فريد فى نوعه . . . ولكننى ، مع ذلك ، لم أحزن كثيراً لأننى لم أستطع كتابة مذكرات عن المجتمعات الشقيقة والمجتمعات الأجنبية التى سافرت إليها من قبل فى ضوء خبراتى ومن وجهة نظرى . ذلك لأننى ، فى حقيقة الأمر ، قد نقلت ، عن وعى فى بعض الأحيان ، وعن غير وعى فى بعض الأحيان الأخرى ، بعض ما أعرف عن هذه المجتمعات ، عن طريق أساليب أخرى غير الكتابة مثل المحاضرات والندوات والمناقشات .

أما وقد أتيحت لى الفرصة لأحيا بعض التجارب فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، وهو مجتمع له سمات خاصة ، ولم يكتب عنه سوى القليل ، فقد رأيت لزاما على أن أعد نفسى، ذهنيا ونفسيا ، لأكتب عنه بعض المذكرات وقد كتبت هذه المذكرات حتما ، ولا حيلة لى فى ذلك ، فى ضوء بعض الانطباعات وبعض الحقائق وبعض الآراء . . وأنا لا أدعى قط أنى قد ألممت بكل شىء عن المجتمع اليوغسلافى المعاصر فى هذه المذكرات . . ولكنى أدعى أنى حاولت ابراز كل الموضوعات التى تناولتها المذكرات من وجهة النظر الإجتماعية . . ميدان تخصصى . . ، وهى موضوعات رأيت ، من وجهة نظرى ، أنها قد تفيد القارىء العربى فى هذه المرحلة التاريخية التى يمر بها الوطن العربى . . فهى مادة للمعرفة أولا . . وهى ، ثانيا ، مادة للمقارنة .

وستتناول كل مذكرة من « مذكرات يوغسلافيه » ، بالضرورة ، موضوعا واحدا أو أكثر من موضوع . وسيتناول مضمون هذه الموضوعات انطباعات الكاتب وبعض الحقائق التى جمعها .. وأخيرا الآراء التى اختارها دون غيرها ، سواء كانت آراءه الشخصية أو آراء أخرى .

ولا يعنى ذلك أن كل مذكرة ، سواء تناولت موضوعا واحدا أو أكثر من موضوع ، ستتضمن موضوعاتها هذه الانطباعات والحقائق والآراء جميعا .. فقد يكون الموضوع أو الموضوعات فى مذكرة مجرد انطباعات ، وفى أخرى مجرد حقائق ، وفى ثالثة مجرد آراء .. وقد يكون الموضوع أو الموضوعات فى مذكرة رابعة مجرد انطباعات وحقائق ، وفى خامسة مجرد انطباعات وآراء ، وفى سادسة مجرد حقائق وآراء ، وفى مذكرة سابعة هذه الأمور جميعاً ..

ومن حق القارىء أن يعرف ، أول ما يعرف ، معانى المفاهيم الثلاثة : انطباعات وحقائق وآراء .. وسأفعل ذلك .. أى سأتناول كل مفهوم على حدة بالشرح . وأرجو أن يكون الشرح واضحا ومفهوما ، وفى الوقت نفسه وافيا ..

وأقصد بالانطباع مجرد الصورة الذهنية لبعض الأشياء . سواء أكانت أشياء مادية أم علاقات إنسانية أم أنماطا من السلوك البشرى . ويلاحظ قولى « بعض الأشياء » وعدم قولى « كل الأشياء » .. لأن هناك ، بالضرورة ، عملية اختيار .. فأنا أختار من بين ملايين الأشياء التى أواجهها أشياء دون أشياء ... والقارىء يفعل ذلك .. وكل إنسان يفعل ذلك أيضا .. وتتحكم فى عملية الاختيار هذه أمور عديدة .. أهمها ، فى تصورى ، الخبرة التى اكتسبها الشخص .. أى شخص .. فكل شخص منا لديه خبرة ما .. وهى خبرة غير ثابتة .. بل هى فى تطور مستمر . وهذه الخبرة تطور ، عادة ، موضوعات اهتماماتنا . وأشير ، هنا ، باصبعى إلى مفهوم « الشخص » الذى ذكرته فى السطر الأسبق . وأقصد به الفرد ذا الشخصية ، وليست لكل فرد شخصية .. فالطفل ، مثلا ، فرد لم تتكون شخصيته بعد .. ، وتزداد شخصية كل شخص نموا كلما نما جسميا ونضج عقليا وعاطفيا ، وكلما نمت خبرته الاجتماعية ، أى كلما زادت علاقاته الاجتماعية ، واتسعت مجالاتها ، أى كلما تعددت أدواره الاجتماعية التى يؤديها للمجتمع الذى يعيش فيه . ويعتمد تعدد الأدوار الاجتماعية على النمو الجسمى والنضج العقلى والعاطفى .. والعكس صحيح . وكلما ازداد تعدد الأدوار الاجتماعية عند شخص زادت مكانته الاجتماعية . وتقل مكانة الشخص الاجتماعية كلما قلت أدواره الاجتماعية التى يؤديها للمجتمع الذى يعيش فيه . وترجع قلة الأدوار الاجتماعية عند شخص إلى عوامل عدة .. منها المرض المزمن ، الجسمى أو النفسى أو العقلى .. ومنها الشيخوخة .. ومنها مايعبر عنه بالفشل الاجتماعى ..

وإذا كان الإنطباع مجرد صورة ذهنية لشيء مادى معين ، أو لعلاقة إنسانية معينة ، أو لنمط معين من أنماط السلوك البشرى . . فإنه يلاحظ أنه ليس ، بالضرورة ، أن تكون هذه الصورة الذهنية موضوعية . فإذا كانت موضوعية فلا تكون العملية التى حدثت هى الوصول إلى انطباع ، ولكن الوصول إلى حقيقة . وكل الحقائق عبارة عن ذاتيات متداخلة . . وديناميه أى أنها فى تغير مستمر . ويلاحظ أن درجة هذا التغير ليست متعادلة . . فالتغير قد يكون سريعاً فى بعض الأحيان . . وقد يكون فى بعض الأحيان الأخرى بطيئاً . .

وهنا . . أرجو أن يلاحظ القارىء أمراً هاما . هو : أن الحقيقة غير الحق . لأن الحق هدف . وهو ، أى الحق ، فى الواقع، أسمى هدف يحاول الإنسان الوصول إليه . . ونرى الإنسان يشقى فى سبيل ذلك كثيراً . . ومع ذلك . . فإننا نراه لايسعد عند الوصول إليه دائماً . والشواهد الدالة على ذلك كثيرة ، فى ضوء الوقائع التاريخية . . فى الماضى . . وحتى فى وقتنا الحاضر . . أقصد فى النصف الثانى من القرن العشرين . ولعل ذلك أن يرجع إلى أن المجتمع الانسانى لم يصل إلى مستوى النضج الاجتماعى المرجو . . والناس فى هذا الموضوع ، أى موضوع النضج الاجتماعى للمجتمع الانسانى مذاهب . . وهم يختلفون اختلافا كبيرا . فمنهم من لايرى وصول المجتمع الانسانى إلى مستوى النضج الاجتماعى المرجو أبدا . . ومنهم من يرى ذلك حتما . . وهو ، فى رأيى ، لا بد واصل إلى هذا المستوى . . أى أن المجتمع الإنسانى لابد أن يصل إلى المستوى الاجتماعى الذى يكفل لأعضائه السعادة . .

والحقائق ، وحدها ، توصلنا إلى الحق . وحقيقة واحدة عاجزة عن تحقيق هذا الهدف . ولكن لابد من مجموعة حقائق . . ولكن ليس كل مجموعة حقائق موصلة إلى الحق . . فالحقائق يجب أن تكون منسقة بأسلوب

منطق معين حتى تساعدنا على الوصول إلى الحق المنشود . فحقائق ظاهرة مادية معينة ، أو ظاهرة اجتماعية معينة ، من غير هذا الأسلوب ، لاتعنى شيئا . وأقصد بهذا الأسلوب المنطق ، الأسلوب المصطلح عليه بالأسلوب العلمى . .

ويلاحظ أن مصدر الحقائق .. كل الحقائق .. يجب أن يكون الواقع .. الواقع المادى . . والواقع الاجتماعى . ولا بد أن القارىء قد لاحظ قولى «كل» ، و «يجب» ، لأن بعض الحقائق ، مادية كانت أو اجتماعية ، لاتأتى عادة ، من الواقع . ولعل القارىء أن يعرف الكثير من هذه الحقائق . وهى ، رغم خطورتها وخطرها ، لا يمكن أن ترقى إلى الحقائق بالمعنى العلمى لهذا المفهوم .

ولعل القارىء أن يكون له . . رأى أو آراء . . فى كل الذى كتبته قبل ذلك . ويحق لكل قارىء أن يكون له رأى فى كل الذى كتبته قبل ذلك وفى كل الذى سأكتبه بعد ذلك . فإذا اقتنع القارىء ، مثلا ، بما أكتب فإن مجرد اقتناعه يعتبر تعبيراً عن رأيه . وحتى إذا خالفت آراء القارىء ما أكتب فهو يعبر ، عن طريق هذه المخالفة ، عن رأيه . وتعنى الآراء ، فى الواقع ، القيام بعملية التفسير . . تفسير كل شىء . . ماديا كان أو غير مادى . واختلاف الآراء يعنى الاختلاف فى هذا التفسير . ويرجع الاختلاف الأخير إلى اختلاف خبرة كل شخص يحاول هذا التفسير . . وخبرة الأشخاص غير ثابتة . . بل هى فى تطور مستمر . والخبرات المنتظمة تعين على التفسير الأصح . والمقصود بالخبرات المنتظمة الخبرات التى تكون فى ضوء القوانين العلمية والنظريات العلمية والخبرات الواقعية

أو مايطلق عليها أحيانا بالخبرات التجريبية . وأسمى أنواع الخبرات المنتظمة هى التى تكون فى ضوء القوانين العلمية . ومع هذا فقد نجد أشخاصاً يفسرون الأمور فى ضوء أية خبرة . . . وكثيراً مايحدث هذا مع ما يتضمن من خطورة فى بعض الأحيان . ولكن العبرة ، أخيراً وآخراً ، فى أن يكون التفسير صحيحاً ، أى فى التأكد من صحة نتائجه وتحقيقها عمليا .. والإستفادة من هذا التحقيق العملى فى سبيل سعادة الإنسان .

من مدينة القاهرة إلى مدينة بلجراد



المبعوثون والوافدون

لم يكن يدور بخلدى قط ، عندما فكرت فى كتابه هذه المذكرات ، وقد فكرت فيها ، وأعددت لها قبل أن أبارح مدينة القاهرة بوقت قصير ، أن يكون موضوع المبعوثين والوافدين أحد موضوعاتها . والمبعوثون ، كما يعلم القارىء ، هم الصفوة المختارة من أبناء وبنات الجمهورية الذين يذهبون إلى الخارج فى سبيل طلب العلم ، ثم بعد الانتهاء من مهامهم العلمية يعودون إليها ليشاركوا فى بناء المجتمع الجديد ، ويعملوا مع العاملين فى سبيل مستقبل أسعد ، وغد أفضل .. أما الوافدون فهم الطلبة والطالبات الذين يفدون إلى الجمهورية فى سبيل طلب العلم . والأخيرون يأتون من كل مكان فى المعمورة من أفريقيا .. ومن الشرق الأوسط .. ومن بعض بلاد آسيا .. ومن بلاد الكتلة الغربية ، ومن بلاد الكتلة الشرقية على السواء . واهم ما يوصف به هؤلاء الوافدون أنهم الصفوة المختارة من أبناء وبنات بلادهم ، وزعماء وزعيمات المستقبل فيها عندما يعودون . واعترف للقارىء اننى لا أعرف شيئا خطيرا عن هؤلاء الوافدين . ولكنى أتصور ، وأرجو أن يتصور القارىء معى ، العبء الخطير .. والواجب الأكبر اللذين يقعان على عاتق المسئولين عن رعاية الوافدين فى الجمهورية العربية المتحدة ..

ولأبدأ بما كان يجب على أن أبدأ به .. فى القاهرة .. هناك .. عاصمة افريقيا .. وعروس العواصم .. علمت ، كأحد المبعوثين إلى الخارج فى مهمة علمية ، أنه استكمالا للاجراءات المتعلقة باستخراج « جواز السفر » ، وبالحصول على « تأشيرة الخروج » أنه يجب على أن أحصل على الموافقة الرسمية من « إدارة رعاية المبعوثين والوافدين » بشارع ضريح سعد . ذلك

لأننى أصبحت ، منذ التو واللحظة ، واحدا من رعاياها .. وقد صدعت للاجراءات .. وذهبت ، مسرعا إلى هذه الاداره . وكان ذهابى إليها ، فى الواقع ، لأول مرة فى حياتى .. على الرغم من سفرى إلى الخارج فى مهام علمية ثلاث مرات قبل ذلك .. كان ذلك فى عصر ما قبل الثورة .. كانت فيه قيمة المواطن ضئيلة جداً حتى لو كان من الصفوة المختارة من أبناء وبنات البلاد الذين يذهبون إلى الخارج فى سبيل طلب العلم ..

وذهبت إلى إدارة رعاية المبعوثين والوافدين وحب الاستطلاع يملأ كيانى .. وتذكرت ، وأنا فى طريقى إليها ، المهام الضخمة التى يقوم بادائها المجلس البريطانى فى المملكة المتحدة .. للوافدين إليها والمبعوثين منها .. على اختلاف مكاناتهم ومهنهم وأغراضهم ومهامهم . وتذكرت ، كذلك ، الدور الكبير الذى يقوم به المعهد التربوى الدولى فى الولايات المتحدة لهؤلاء الأشخاص .. كما تذكرت مركز الدراسات الافريقية بجامعة بوستن .. وهى الجامعة التى تخرجت فيها .. كان هذا المركز ، ولايزال ، معقل الصحفيين والسياسيين والطلاب وجميع المهتمين بشئون البلاد الافريقية .. يزودهم بالمعلومات والخبرات فضلا عن الاتجاهات الخاطئة أو المتحيزة وذلك عن طريق الكتب والبحوث والمحاضرات والندوات .. والمقابلات الشخصية .. وعن طريق حفلات الشاى والعشاء أيضا .. تذكرت هذه المؤسسات الثلاث لأننى عشت خبراتها .. الخبرات الحلوة والخبرات المرة على السواء . ولأننى مارست الحياة فى اجوائها .. وعرفت خباياها .. وأهدافها .. ولابد أن القارىء ، قد حدس ، بين السطور السابقة ، دون ماريب ، ما أقصد وما أعنى ..

لقد كانت هذه المؤسسات عبارة عن منظمات اجتماعية ، لكل هيكلها المادى ، ولكل وظائفها وأهدافها . وهى مازالت كذلك حتى الآن .. يؤمها كل الأجناس والعناصر والأنواع ، وتختلط فيها المصالح وتتعارض وتتصارع ..

وأحيانا تتفق . اما برامجها فقد وضعت باتقان الانجليز .. وصرف عليها بسخاء الاميريكيين . وقد سخرت هذه البرامج . كلها .. لتخدم أهداف ومصالح الدولة القيمة عليها .. وهى أهداف ومصالح ، بالضرورة ، انانية .. استعمارية .. وفى بعض الأحيان تكون أهدافا ومصالح لا إنسانية .. والقائمون على تنفيذ هذه البرامج يستحقون الدراسة .. وهم ، فى كلمة ، من حيث اختيارهم صفوة ، ومن حيث تدريبهم العلمى والعملى فئة تنبعث منها القدرة وتشع الاتقان .. أما شخصياتهم فقد كان ينبعث منها الشك ولا تشع إلا البهتان ..

تذكرت كل هذه الأمور وأنا فى طريقى إلى إدارة رعاية المبعوثين والوافدين .. بالقاهرة .. بشارع ضريح سعد .. وداعبتنى الآمال فى بلادى وفى أهل بلادى .. آمالنا الإنسانية .. البناءة .. آمالنا التعاونية .. الخيرة .. ورفعت يدى إلى السماء ..

وتحدثت مع المسئولين عن الادارة .. فمن وجدت ؟ وماذا وجدت ؟.. وجدت أناسا كراما من خيرة المصريين العرب ، وأحسست ، فى كنفهم ، أول ما أحسست ، بلا مبالغة ، بالأمن والايمان .. وجدت أناسا يحملون الأمانة .. أو بصيغة أدق قادرين على حمل الأمانة ولكنهم يقومون فى سبيل تحقيق رسالتهم العظيمة بما فى وسعهم ، وفى حدود قدراتهم ، وهى كبيرة ، وفى حدود امكانياتهم ، وهى قليلة . وتحققت آمالى . ولكن من حيث المبدأ لا من حيث التطبيق . وسأكون واضحا أكثر من ذلك .. كان ذهابى إلى إدارة رعاية المبعوثين والوافدين يوم الاثنين .. وقابلنى المسئول هاشا باشا .. وكانت تنبعث من شخصيته الطيبة واليقين والايمان بالمسئولية .. وكان يتوج كل ذلك حسن النية المنقطع النظير .. وأخذ الأوراق الرسمية منى .. ثم داعبها .. وبعد ذلك ختمها .. وطلب منى أن أحضر يوم الأربعاء

من نفس الأسبوع إلى كلية التربية للاستماع لمحاضرة .. نعم محاضرة .. محاضرة واحدة .. لا غير .. ولم ينس أن يعطينى خطابا موجها إلى مصلحة الاستعلامات ييسر لى التزود بالكتب والنشرات ، باللغات العربية والأجنبية ، لكى أحمل منها ما أشاء .. حتى أكون على بينة من مستوى النمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى وصلت إليه بلادى فى هذه المرحلة من عمرها .. ومن ثم أستطيع ، إذا أنا قرأت هذه الكتب والنشرات وتمثلت ما فيها ، أن أجيب على الأسئلة التى قد يوجهها إلى أى شخص فى البلد الذى سأسافر إليه ..

وتمت الصفقة .. ولست أدرى حتى اليوم من الرابح ومن الذى خسر ..؟

فى مطار القاهرة الدولى

لا يتوقع القارىء أننى سأكتب عن مطار القاهرة الدولى فى شمول والمام . . فأنا شخص ذو اختصاص محدود ، وقد سبقنى الكثير من المتخصصين والكتاب فى الكتابة عن هذا المطار العظيم . كتبوا عن هذا المطار بالتفصيل . . وكتب كل منهم فى ضوء اختصاصه واهتماماته وفى ضوء خبرته ومن وجهة نظره . ولا داعى إلى الإعادة والتكرار خصوصاً إذا فعل ذلك هاو مثلى . . فالاعادة يأتى فى ثناياها الملل . . والتكرار يجلب معه السأم .

وسأكون صريحاً . . فأنا فى الواقع لم يجذبنى بناء المطار . . الفخم . . الناطق بأعذب الألحان . . ولكن الذى استرعى اهتمامى وملك على كيانى هم العاملون فيه . أبناء وبنات بلادى . لأول مرة أراهم عن كثب : ولأول مرة أتعامل معهم . أى أن تعاملى معهم كان على غير معرفة . . ومن حقك أن تعرف الشخص . . أى شخص إذا أنت عاملته . . طبعاً أنهم يؤدرن أدوارا معينة . لكل دوره ، ومن ثم فقد عرفت من عرفت . . أى من عاملت . . كل فى دوره . . واسعدتنى التجربة . . وتفاءلت خيرا كثيراً وخصوصاً وأنا على وشك الرحيل . . أى على وشك مواجهة المجهول . . فى بلجراد .

إنهم يؤدون أدوارهم ، كل فى دوره ، فى رشاقة ، وفى إنسانية ، إن الشعور بالواجب يشع من شخصياتهم . . تحس به إحساساً ، وتمتصه شخصيتك امتصاصاً . أجل . إن الشعور بالواجب يعطر جو المطار

العظيم . فى كل مكان فيه ، وفى كل زاوية فيه ، ومعذرة أيها القارىء ، فأنا لا أحلم ، اننى أعيش واقعاً جميلا ، أعيش فى ثناياه حتى هذه اللحظة ، لحظة كتابة هذه السطور .

وتفاءلت خيراً كثيراً ، وخصوصاً وأنا على وشك الرحيل . ومن حقى أن أتفاءل ، ومن حقى أن أعبر عن هذا التفاؤل وانقله نقلا أميناً إلى القارىء ، على الرغم من ازدحام الصور البائسة ، التى تعيش فى واعيتى ، عن بعض دور الحكومه ومصالحها ، وعن بعض محاكمنا ، وعن بعض مصانعنا ، وعن غير ذلك . ويرجع تفاؤلى إلى إننى أقول كما يقول طلاب علم الإجتماع بأن القيم الإجتماعية تتصارع ، ويشتد هذا الصراع فى المجتمع المتغير ، ومجتمعنا مجتمع متغير ، والقيم الجديدة تتصارع مع القيم القديمة ، وهى ، أى القيم الجديدة ، عادة ، فى صراعها ، بمرور الوقت ، تصرعها ، أى تصرع القيم القديمة ، فمطار القاهرة الدولى ، مثلا ، ما هو إلا مجموعة من القيم الإجتماعية الجديدة قد انبثقت فى مجتمعنا الجديد المتغير ، ولكونها جديدة فهى الغالبة حتما ... لأن القيم الإجتماعية القديمة فى المجتمع الجديد المتغير ما هى إلارواسب ـ رواسب بالية ـ والبالى من القيم ومن الاتجاهات والآراء ، ومن الأمور والأشياء ، لابد أن يتداعى ، وهنا أقف لحظة وجيزة .. لكى أحذر القارىء .. فنحن قوم نسابق الزمن ، ومن ثم يجب أن لانترك الزمن يفعل بنا مايريد ، بل يجب أن نرغمه على فعل مانريده نحن أى أنه يجب أن لايقتصر دورنا على المشاهدة والإنتظار ، مجرد مشاهدة هذه الصراعات .. ومجرد انتظار نتائجها ، أى مجرد التطلع إليها ، ثم نهز الكتفين .. وأرجوا أن يلاحظ القارىء قولى « لابد أن يتداعى » وأقصد من ذلك أنه لابد أن يدرس ويفهم ، حتى يتيسر ضبطه ومن ثم توجيهه أو الحد منه . فالرواسب الباليه ، كما يعلم القارىء ، لاتذهب بين يوم وليلة .

وهى تقف، إذا تركت، عادة، حجر عثرة فى سبيل التقدم المنشود . . أى إذا تركت ولم تدرس دراسة موضوعية .. أقصد دراسة علمية . . ونحن نجد ، فى عصر العلم ، أن الرواسب البالية عديدة فى مجتمعنا الناهض ماتزال .. وهى تنتظر من علمائنا الأفاضل القيام بهذه الدراسة العلمية . . بل هى تدعوهم إلى ذلك . . وتلح فى هذه الدعوة الحاحا متزايدا . .

فهل من مجيب ؟

الحصان العربي الطائر

لم تتح لى فرصة ركوب طائرة عربية من عابرات البحار والمحيطات قبل اليوم . فأنا لم أبرح الجمهورية إلى الخارج منذ عام ١٩٥٦ . وكنت قبل ذلك أركب الطائرات الأجنبية . . وكانت أول طائرة ركبتها هى احدى الطائرات البلجيكية . كان ذلك فى عام ١٩٤٨ .. وكنت إذ ذاك فى مدينة لندن . . وكانت الحكومة الانجليزية ، فى ذلك الحين ، تواجه ثورة الملايو . . واضطررت ، بسبب ذلك ولأسباب أخرى ، إلى ركوب الطائرة لأول مرة فى حياتى . .

كانت ثورة التحرير فى الملايو ، فى تلك الآونة على أشدها . . ومن ثم جندت الحكومة الانجليزية ، لمواجهتها ، جميع البواخر والطائرات . . المدنية منها والحربية .. لتحمل الجنود وكل أنواع الذخائر المدمرة . . وكان هدفها .. أى هدف الحكومة الإنجليزية ، الذى لا هدف بعده ولا قبله ، هو تأديب ثوار الملايو . . وكانت الصحف الانجليزيه تطلق على هؤلاء الثوار لقب « الرعاع » .. مثل ما فعلت ذلك صحف الولايات المتحدة لثوار كوريا الشمالية ، وكما فعلت ، بالضرورة ، صحف فرنسا لثوار الهند الصينية وثوار الجزائر . . وكانت البواخر والطائرات تحمل الجنود والعتاد من موانى المملكة المتحدة ومن مطاراتها عبر البحار والأجواء إلى الملايو . . أى من شمال غربى القارة الأوروبية إلى جنوب شرقى قارة آسيا واعتبرت الحكومة الانجليزية إرسال أبنائها واجبا وطنيا ساميا .. أليس هو ، كما كانت تقول صحيفة الديلى اكسبريس ، وسيلة إلى توطيد الاستعمار الانجليزى المنهار فى الملايو ؟ . وليكن ارسال أبناء الانجليز هادفا إلى الحرب وسفك الدماء ..

فمن يهتم ؟ ولتكن هذه الدماء دماء أبناء الإنجليز أو دماء ثوار الملايو ..
فمن يهتم مرة ثانية ؟ .

ولم يكتف الإنجليز المستعمرون بإرسال جنودهم وعتادهم وذخائرهم لقمع حركة ثوار الملايو .. ولكنهم فعــلوا أشياء أخرى .. وأنا أذكر من هذه الاشياء أنهم استأجروا عديدا من رجال قبائل قاطعى الرؤوس الآدمية المجاورين للمنطقة .. وهؤلاء يعيشون ، وما يزالون ، حياة بدائية ، ويكثرون فى ولاية « أسام » . وهم يمارسون قطع الرؤوس الآدمية عن عقيدة .. وخصوصاً رؤوس الغرباء عنهم . استأجرهم الإنجليز المستعمرون نظير دفع ثمن بخس .. دراهم معدودات . لكل رأس من رؤوس زعماء الملايو الثائرين .. خصوصاً الذين يتخذون منهم من الجبال وجاء .. أو من الغابات حماية . وكان هؤلاء البدائيون القتلة يعملون فى الزعماء الابرار قتلا وتقتيلا، مؤمنين بأن روح الإنسان .. أى إنسان .. تسكن، دائما ، فى الرأس الآدمى . وهى ، أى الروح ، عبارة عن شىء يشبه الدمية الصغيرة .. وهذه الدمية مملوءة بمادة تشبه البخار .. فإذا ما قطع الرأس انتشرت ، بالضرورة ، المادة البخارية فى الجو .. وامتصها الزرع فى الحقل .. وزادت خصوبته .. وتصل هذه الخصوبة ، بدورها ، إلى الإنسان عن طريق أكل القمح .. وإلى الحيوان عن طريق أكل العشب .

كان ذلك عهداً مضى وراح .

إذا كنت قد اضطررت اضطرارا إلى ركوب الطائرة لأول مرة فى حياتى فى عام ١٩٤٨ .. أقصد أول طائرة أجنبية .. فإننى عن رغبة وطواعية ركبت ، لأول مرة فى حياتى ، أول طائرة مصرية عربية من عابرات البحار والمحيطات فى عام ١٩٦٣ . ولا أخفى على القارىء شيئا .. فمنذ اللحظة الاولى التى وطئت فيها قدماى أرض الطائرة العربية .. حتى تحركت .. ثم طارت محلقة فى كبد

السماء على ارتفاع نحو ٢٣٠٠٠ قدم . . ، منذ تلك اللحظة حتى وصلت الطائرة إلى مطار بلجراد .. كنت أعيش، أنا أيضاً ، محلقا عبر السنين ..عبر خمسة عشر عاما . لا بل أكثر من ذلك .. عبر أكثر من ثلاثين عاما . عندما كنت فى ذلك الحين تلميذا فى المدرسة الابتدائية .. عندما كان المستعمرون وأذنابهم وورثة دنلوب ، يعلمونا فى المدرسة أن من حق الإنجليز ، وحدهم أن يفتخروا لما لهم من المجد الأثيل ورفعة السلطان وامتلاكهم ناصية البر والبحر ..

وعندما هبطت الطائرة العربية .. واستقرت فى مطار بلجراد .. وجدتنى، أنا أيضاً ، أهبط وأستقر فى الواقع .. واقع بلادنا المشرق .. التى بددشعبها العظيم المكافح الأساطير وجعلها عدما ..

أين أبى ، وأين أمى ، ليريا ماحدث ؟

مدينة بلجراد



المدينة البيضاء

لم يكن المدينة البيضاء ، أقصد مدينة بلجراد ، مفهوم عندى قبل أن أراها .. كانت مجرد لفظ مكون من مقطعين : « جراد » ويعنى مدينة و « بل » ويعنى بيضاء . واللفظ غير المفهوم كما يعلم القارىء . فالمفهوم عبارة ، فى الواقع ، عن لفظ له دلالة . ومعنى هذا فإن مدينة بلجراد لم تكن لها دلالة عندى قبل أن أراها .. أى لم تكن لها أية صورة ذهنية عندى . . وأعتقد أنها ما زالت مجرد لفظ عند الملايين من المصريين العرب وعند الملايين من غير المصريين العرب .. حتى الآن .

ولفظ بلجراد هو الذى يعرفه الناس ، دولياً ، عن عاصمة يوغسلافيا . ولكن عند أهل بلجراد بل عند أهل يوغسلافيا قاطبة فهى تعرف بمدينة «بيوجراد» . وهو ، أى اللفظ الأخير ، اسم تدليل ليس إلا . . وله نفس المعنى . . أى المدينة البيضاء . .

ومدينة بلجراد مدينة قديمة . . يدل على ذلك وجود بعض الآثار الرومانيه فى بعض أركانها . . ولكن عندما سألت عن عمرها بالضبط ، أو حتى بالتقريب ، لم أجد عند المثقفين اليوغسلافيين الذين قابلتهم إجابة حاسمة على هذا السؤال . . تماما مثلما لم أجد عندهم إجابة حاسمة عن سبب تسمية المدينة « المدينة البيضاء » . ومهما يكن فبلجراد ذات تاريخ ثورى دموى طويل .. فقد اخترقها الرومان وهم فى طريقهم شرقاً إلى دولة البيزنطيين .. وقاتل من أجلها الأتراك والنمسويون . . وهدموها . . وأعادوا بناءها . . ليهدموها مرة ثانية . . وقام اليوغسلافيون المعاصرون بإعادة بنائها بعد أن خربتها الحرب العالمية الثانية . .

ومدينة بلجراد مشيدة على جبل يرتفع فوق سطح البحر بنحو ١٠٠٠ قدم . وهى تقع فى جمهوريا صربيا إحدى جمهوريات يوغسلافيا . ويبلغ عدد سكانها فى ضوء تعداد ١٩٦١ نحو ٢٣٤ ٥٨٥ نسمة .. أى أكثر من نصف المليون بقليل . وإذا سألت أحد سكان بلجراد عن تعدادها أجابك بأنه يبلغ نحو ٠٠٠ ٧٠٠ نسمة .. وقد يقول آخر أن تعداد بلجراد يبلغ نحو ٠٠٠ ٨٠٠ نسمة ، وأى الرجلين يقصد ، فى الواقع ، تعداد المدينة وضواحيها معاً . ويخترق المدينة نهران . . هما : نهر الدونا ونهر السافا . . وتجد الحدائق منثورة فى شوارعها النظيفة . . وتطل أكبر حديقة على نهر الدونا .. وتسور المدينة غابة ساحرة .. يذكرك سحر هوائها المنعش بسحر رائحة البحر أو بسحر منظر الأهرام فى ساعة الغروب . . وقد وجدت ، عندما زرتها ، فى شهر نوفمبر ، آثار الخريف قد تركت بصماتها عليها .. وقال لى كثيرون أن هذه الغابة الجميلة تعتبر مسرحاً لمشاهد الغرام بين المحبين من الجنسين من شباب أهل بلجراد ، وغيرهم ، التى تدور كل يوم على مدار أيام العام .. حتى عندما تمطر السماء ثلجاً .. وعندما تهب الرياح زمهريراً . . ففى السيارات الخاصة متسع للمحبين .. هكذا قال الكثيرون لى . .

ومدينة بلجراد، فى الواقع، مدينة شابة . فعدد الذين لا يزيد أعمارهم على ٤٥ عاما فيها يبلغ نحو ٧٣٪ من عدد سكانها .. وعدد الذين لا يزيد أعمارهم على ٢٥ عاما يبلغ نحو نصف هؤلاء . . ولكن يلاحظ أن عدد الإناث من سكان المدينة يزيد على عدد الذكور . .

ويتحدث أهل بلجراد باللغة الصربية . . وهذه اللغة منتشرة فى أربع جمهوريات من جمهوريات يوغسلافيا الست وهى : بوسنيا — هرزجوفينا وكرواتا ومنتنجرو وصربيا . أما فى جمهورية مقدونيا فيغلب على أهلها التحدث باللغة المقدونية . وفى جمهورية سلوفينا يتحدث أهلها باللغة السلوفينية .

وأهل بلجراد ، كما عرفتم ، يكتبون بالحروف اللاتينية والحروف اليونانية .. ولكن الحروف الأخيرة .. أى اليونانية هى الغالبة على كتاباتهم . .

وطقس مدينة بلجراد طقس جبلى .. وقد قيل لى أنه فى الصيف جميل جداً . . يوافق كل مزاج . . وأما فى الخريف فالطقس معتدل . . ولكنه يميل إلى البرودة نوعا ما . . وتشتد الرياح الباردة فى شهر نوفمبر . . وقد تمطر السماء فيه ولكن رذاذا .. وفى بعض الأحيان ثلجا .. وهى تمطر الثلوج حتما فى شهرى ديسمبر ويناير . . وقد تصل درجة الحرارة فى هذين الشهرين، فى بعض الأحيان ، إلى درجة ٢٥ تحت الصفر . . ولكن يلاحظ أن البيوت والفنادق والحوانيت .. وحتى الترولى باس ، كلها ، مستعدة دائماً لمواجهة برودة الطبيعة القاسية فى أشهر الشتاء .. وذلك عن طريق التدفئة الصناعية .. فلا يشعر المرء بالبرد إلا إذا كان يسير فى الشارع أو إذا كان ينتظر الترولى باس على المحطة . .

وتجدد مدينة بلجراد نفسها فى هذه الأيام . فالمبانى الجديدة تبنى على قدم وساق فى الوقت الحاضر فى الجزء المعروف « بالمدينة الحديثة » . . وأهم هذه المبانى مبانى الحكومة ومبانى الحزب وغيرها . . ويلاحظ الزائر مع ذلك ، أن درجة سرعة البناء قد انخفضت قليلا . . وذلك منذ حدوث كارثة الزلزال فى مدينة « سكوبيا » فى الصيف الماضى حيث تحول عدد كبير من العمال والمهندسين ، منذ ذلك الحين ، إلى هذه المدينة المنكوبة محاولين إعادة بنائها فى أقرب فرصة ممكنة . .

ويبلغ عدد الفنادق فى بلجراد نحو العشرين فندقا .. وأشهر هذه الفنادق فندق «المتروبول» ثم فندق «سلافيا» .. وقد نزلت فى الفندق الثانى عند مجيئى إلى المدينة لأول مرة مضطرا . . وهو فندق حديث البناء .. لا يزيد عمره ، فى الواقع ، عن العام ونصف العام ، ويقع فى مركز المدينة ، وبه ٣٣٢

حجرة .. وكل حجرة بها سريران .. وملحق بكل حجرة دورة مياه مزودة بحمام يتدفق من صنابيره الماء الدافىء والبارد فى سهولة ويسر . . وبكل حجرة، أيضاً، تليفون. ويوجد بهذا الفندق مطعم يسع مائتين من الأشخاص، ومقهى يتسع لـ ٢٥٠ شخصاً ، فضلا عن « تراس » يتسع لـ ٣٥٠ شخصاً.. وتجد بالمطعم كل أنواع الأطعمة اليوغسلافية وكل الأنواع الدولية الأخرى .. كما تجد كذلك المشروبات المحلية والأجنبية على اختلاف أنواعها . ويجد نزيل فندق سلافيا كل ما يحتاج من خدمات .. ومنها ، وأهمها ، بنك استبدال النقود ، أى استبدال النقود اليوغسلافية بالنقود الأجنبية .. وليس العكس.. فيوغسلافيا يهمها أن تشترى بعض العملات الأجنبية . . وهى ترحب ، دائماً ، بشراء الدولار والجنيه الاسترلينى والفرنك السويسرى والدراخمة اليونانية والجلدر الهولندى والروبيـــة الهندى والدينار العراقى والليرة الإيطالية ومارك ألمانيا الغربية والكرومر النرويجى والكرونر السويدى..

والمطاعم تملأ شوارع مدينة بلجراد . وهى توجد ، أيضاً ، فى ضواحيها. والطعام متوفر . . ولكن ثمنه يتفاوت . . فأنت تأكل غذاءك أو عشاءك فى مطعم معين وتدفع مبلغاً نحو ألف دينار (الدينار يساوى ٦ر. من المليم تقريباً) .. وهذا أقل ثمن . وفى مطعم آخر قد تأكل أفخم وجبة غذاء أو عشاء ولا تدفع أكثر من ٤٠٠ دينار . . لا غير . . وهناك أكلات شعبية لا يزيد ثمنها على مائة دينار .. وهى عبارة عن ساندوتش كبير به أربع قطع من « السجق » الذى يطلق عليه الأميركيون عبارة « الكلاب الساخنة » وقد يكتفى الشخص بأكل لبن الزبادى مع الخبز ولا يكلفه ذلك سوى نحو ٦٠ أو ٧٠ ديناراً . أما المشروبات فهى عديدة . . من المياه المعدنية حتى الويسكى .. والمشروب المحلى المشهور يطلق عليه « الفنياك » . وهو مشروب محبب عند اليوغسلافيين . . وهو موضع افتخارهم أيضاً ، وتشتهر به مدينة « كروشيفانس » وهى مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٢٨ ألف نسمة

وتقع فى جنوب شرق مدينة بلجراد . . والناس فى مدينة بلجراد يأكلون كثيراً ويشربون كثيراً . وقد لاحظت أن أهل بلجراد يعشقون القهوة التركى عشقاً . . ويشربونها بشراهة عجيبة . وقد لاحظت أيضاً بوادر الإسراف تبدو واضحة عند من قابلت من المسئولين . . إذ قد يطلب أحدهم ، مثلا ، نوعا معيناً من المشروبات بكميات تكفيه ومن معه وزيادة . . فتكون النتيجة أن لا يستهلك كل المشروب ويترك الباقى على المائدة لصاحب القسمة والنصيب . . ولعل ذلك أن يرجع إلى أن الدوله ، كما علمت يقينا ، هى التى تدفع وليس الموظف المسئول . . ولعل عنصر المباهاة أيضاً يكمل وجه الصورة الآخر . . أقصد مباهاة الدولة عن طريق مسئوليها . .

وتكثر دور السينما فى بلجراد . . ويعرض نصف هـذه الدور أفلاما سينمائية أمريكية . . أكثرها من أفلام الجريمة ورعاة البقر . . ولمـا أبديت هذه الملاحظة لمرافقى اليوغسلافى لم يزد قوله على :

« أن الفيلم اليوغسلافى لايزال فى طفولته . . ونحن نشترى هذه الأفلام بالعملة اليوغسلافية . . وإذا كانت الولايات المتحدة تقبل ذلك فالدول الأخرى لا تقبل » .

وليست الأفلام السينمائية الأميريكية ، وحدها ، هى التى تسود الأفلام الأخرى ، ولـكن الأغانى الأميريكية والموسيقى الأميريكية لها نفس المكانة بين الأغانى الأخرى وألوان الموسيقى الأخرى . .

ومدينة بلجراد مدينة سياحية أولا وقبل كل شىء . . فهى مزودة بكل الخدمات التى يحتاجها السياح أو التى يرغبون فيها . . ففضلا عن الفنادق العديدة والمطاعم المتناثرة فى شوارعها . . تجد أماكن العبادة كما تجد أماكن السهر واللهو البرىء وغير البرىء فى كل مـكان . وتجد كذلك الحوانيت

السياحية المتخصصة فى بيع الهدايا .. وبالمدينة نحو ستة عشر متحفا .. منها متحف الدراما والمتحف الحربى والمتحف الأهلى .. وحتى متحف الصحافة السرية التى كان يصدرها الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى أثناء احتلال ألمانيا البلاد فى خلال الفترة من ١٩٤١ — ١٩٤٤ .. هذا فضلا عن البنوك العديدة المعدة خصيصاً لخدمة السياح ، والوكالات المتخصصة فى تنظيم الرحلات القصيرة .. كرحلات الصيد مثلا .. ووكالات حجز تذاكر الطائرات والبواخر .... الخ .

وتوجد بالمدينة حجرات خاصة للمطالعة .. يشرف عليها الأميريكيون والإنجليز والفرنسيون والسوفيت .. كما توجد بها تسع كنائس .. منها البروتستنتية والكاثوليكية الرومانية .. ومنها أيضاً الكنائس الارثوذكسية .. ويوجد بها أيضا مسجد وهو المعروف باسم « مسجد باجراكلى » ، وهو أقرب الأماكن من متحف الفنون ومن المكتبة الأهلية ..

وتستيقظ بلجراد مبكرة .. فالموظفون يذهبــــون إلى مصالحهم ودواوينهم فى الساعة السابعة صباحا حتى الساعة الثانية بعد الظهر .. وبعض العمال يذهبون إلى مصانعهم قبل ذلك .. أما الحوانيت فتفتح أبوابها فى الساعة الثامنة صباحا وتغلقها فى الساعة الثانية عشرة ظهراً ، ثم تفتحها مرة أخرى فى الساعة الرابعة مساء حتى الساعة السابعة مساء ... وفى أيام السبت تفتح الحوانيت أبوابها من الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الثانية بعد الظهر .. وأيام العمل فى الأسبوع ، فى يوغسلافيا ، مازالت ستة أيام ..

وإذا كانت المدينة تستيقظ مبكرة فهى تظل يقظانة حتى الساعة الرابعة صباحا .. فتجد «اللوتس» و « الكريستال » ، وهما ناديان ليليان ، يعملان حتى هذه الساعة المبكرة ....

من سمات أهل بلجراد

إن معظم الناس الذين يتخذون من مدينة بلجراد مقاما لهم فى الوقت الحاضر هم من العمال والموظفين والطلبة ومن الجنود والضباط . وليس ، بالضرورة ، أن يكون هؤلاء قد ولدوا جميعاً فى بلجراد .. أى أن الظاهرة الإجتماعية المعروفة بظاهرة الهجرة الداخلية ، وهى إحدى سمات المجتمع اليوغسلافى فى الآونة الحاضرة ، تماما كما هى سمة من سمات مجتمعنا المصرى العربى فى الوقت الحاضر . قائمة على قدم وساق فى بلجراد . وإذا رأيت أهل بلجراد فى شوارعها الكبيرة النظيفة .. فى غير أوقات العمل الرسمية ، تجدهم من الشباب . أما الصبيان والفتيات وكبار السن من الرجال والنساء ، فهم موجودون غالبا ، فى الأزقة والحوارى ودور السينما والحدائق . . فالصبيان والفتيات ، بعد انتهاء اليوم الدراسى ، تجدهم دائما يلعبون فى الأزقة والحوارى ، أمام بيوتهم ، أو يذهبون إلى دور السينما . . واللعبة المفضلة عند الصبيان هى لعبة كرة القدم ، أما الأفلام السينمائية المفضلة عند الصبيان وعند الفتيات أيضاً ، فهى الأفلام المثيرة . . أفلام الجريمة .. وأفلام رعاة البقر الأمريكية .. وليس كل الفتيان منشغلين فى لعب كرة القدم .. أو يذهبون إلى دور السينما .. دائما وأبدا .. وليس كل الفتيات كذلك يلعبن أمام منازلهن أو تجتذبهن الأفلام الأمريكية المثيرة فى كل الأحيان .. وإنما قد يحلو لهؤلاء وهؤلاء أن يقفوا فى كل ركن من أركان الشارع .. أقصد الزقاق أو الحارة يتحدثون ويضحكون .. ويدخنون السجاير اليوغسلافية الرخيصة .. وترى كبار السن من الرجال والنساء يلتمسون بقعة هادئة فى كل ركن من أركان إحدى الحدائق العامة ، وهى كثيرة فى بلجراد ، ينعمون فيه بالهدوء أو بدفء الشمس إذا كانت الشمس ساطعة . وتجدهم قابعين ساكنين كأن على رؤوسهم

الطير .. كأنهم التماثيل .. لاهدف لديهم إلاأن يستهلكوا الوقت الباقى .. ويجتروا الذكريات .. ذكريات الوقت الذى فات ..

ويلاحظ الذى يواجه أهل بلجراد ، وجها لوجه ، أنواعا شتى من الناس .. يجد ، مثلا ، أنواعا شتى من الوجوه ومن قسمات الوجوه وحتى من ألوانها .. كما يجد أنواعا شتى من الأجسام .. الأجسام الطويلة الفارعة ، وهى الأكثرية ، والأجسام القصار .. وربما يجد أحد الأقزام قابعا فى ركن من أركان أحد المقاهى .. أما أحجام أجسام الناس فى بلجراد فعادية .. أقصد إنك تجد الجسم كبير الحجم كما تجد الجسم صغير الحجم .. فى محيط الرجال وفى محيط النساء على السواء .. وإذا أردنا التعميم يمكن أن نقول إن أجسام اليوغسلافيين الذين رأيتهم تغلب عليها النحافة باستثناء عملاء المطاعم الفاخرة فأجسامهم وأجسامهن ، فى الأغلب الأعم ، من الحجم الكبير سواء كانت طويلة أو كانت أجساما قصيرة ..

ويكفى أن يسير الزائر فى الشارع فيما بين ميدان « سلافيا » وميدان « ترازيا » ومن الميدان الأخير إلى المبنى المعروف « بمبنى البانيا » ليرى أن المدينة ، على صغر حجمها وقلة عدد سكانها النسبية ، تكاد أن تكون مدينة دولية .. فيها من كل الأجناس والجنسيات والأنواع والألوان .. وفيها يسمع ، أيضاً ، معظم اللغات البشرية ولهجاتها .. ولعله ، أى الزائر ، واجد كل هذه الحقائق إذا دخل أحد المطاعم المشهورة ، أو جلس فى مقهى معروف ، أو نزل فى أحد الفنادق من الدرجة الأولى ، فى كل وقت من أوقات العام ، حتى فى الفترة التى لا تعتبر فترة سياحية .. فترة الشتاء .. فترة الزمهرير والثلوج .. فترة الرياح الجبلية العاصفة ، رياح « الكوشافا » ... وهذا اسمها ، التى تجىء عادة من الشرق . واليوغسلافيون ، بهذه المناسبة ، يتشاءمون من الشرق .. من كل من يأتى منه .. ومن كل ما يأتى منه ، ولعل تشاؤمهم هذا أن يكون مبعثه

الظروف التاريخية التى مرت بها بلادهم والخبرات المريرة القاسية .. الطويلة التى عانوها من الشرق . . رياحه وناسه .. على السواء . .

وأهل بلجراد اليوغسلافيون من الذكور والاناث أناس تنبعث من شخصياتهم روح المرح والانطلاق . . تراهم يرتبطون بعضهم ببعض ، وبغيرهم اجتماعيا ، فى سهولة وفى يسر . وتجد الرجال منهم يقبلون بعضهم بعضا ، فى حرارة ، فى الشوارع وفى الفنادق وفى المطاعم ، وتجد السيدات يفعلن ذلك أيضا . . أما موضع القبلات فهو الأفواه وليس الخدود . . . ، وترى الرجال يطلقون عقائرهم بالغناء كلما يحلو لهم ذلك .. يفعلون ذلك ، جماعات ، فى الشارع وفى المقهى . . وفى البار . . . وأغانيهم التى يرددونها ، عادة ، هى من نمط الاغانى الفلكلورية . . وهى أغانى يشوب الحانها ومعانى ألفاظها ، فى الغالب ، الحزن والأسى . . وتجد الرجلين ، أحيانا ، يسيران فى الشارع ، جنبا إلى جنب ، وكأنهما رجل وامرأة . . وتجد السيدتين الشابتين تفعلان ذلك أيضاً . . وتملأ أفواه أهل بلجراد ، نسائها ورجالها ، الاسنان الذهبية البراقة .. فتلمع هذه الاسنان فى فيه أستاذ الجامعة كما تلمع فى فيه أحد العمال . . . ، وترى بريقها فى فم سيدة من السيدات اللاتى يطلق الناس عليهن ربات البيوت . . وتراه ، أيضا ، فى فم واحدة من اللاتى يطلق المجتمع عليهن بنات الهوى . . على السواء . ولا يعدم الزائر أن يجد فى بلجراد شابا عاديا يعاكس الفتيات العاديات فى الشارع . . . ، ولا يعدم كذلك أن يجد فتاة عادية لاتقل جسارة فتبدأ هى فى معاكسة الشبان العاديين . . وقد يجد صبيا يتخذ من شيخ عجوز ضحية للهوه وسخريته . . أو شيخا ينفعل ساخطا ازاء تصرفات أحد الصبيان فيسب ويلعن .

والتفرقة العنصرية لم أصادفها عند أهل بلجراد اليوغسلافيين .. والتفرقة الدينية أيضا غير موجودة . والملونون من أهل بلجراد وهم ، فى الغالب ،

من الأجانب لا ينعمون ، دائما ، بصداقة الجنس الآخر من اليوغسلافيات العاديات فى سهولة ويسر . . حتى لوكانوا من الطلبة . . لذلك فهم يسعدون بلقاء الجنس الآخر من الملونات العاديات . . وأعضاء الجنس الآخر من الملونات العاديات يشاركنهم ، ما فى ذلك شك ، هذه السعادة . .

وأهل بلجراد ، على اختلاف مكاناتهم ومشاربهم ، مولعون بشراء أوراق اليانصيب (اللوترية) . . وهم أيضا يشترون أوراق « اللوتو » . والفرق بين هذه وتلك انك عند ممارسة العملية الأولى تشترى ورقة لها رقم معين ، أما عندممارسة العملية الثانية فانت الذى تقترح هذا الرقم .. ويكون هذا الرقم ، عادة رقما كبيرا مكونا من ستة أرقام .. فاذاربح أى الرقمين ربحت. والرهان على نتائج كرة القدم رائج جدا بين أهل بلجراد .. وتبارك الحكومة كل هذه العمليات . . ، وذلك بصرف النظر عما يغرس الرهان فى النفوس من السلبية والاعتقاد فى بعض الصور الغيبية . . وعما يشجع المواطنين على الربح السريع ، فى مجتمع كالمجتمع اليوغسلافى المعاصر .

ولاتجد فى بلجراد ماسحى الأحذية يجرون وراءك فى الشارع . ولكنك تجدهم يجلسون فى أماكن معينة فى الشارع بالقرب من الفنادق مثلا . . أو بالقرب من احدى محطات الاوتوبيس الرئيسية . . ولك أن تذهب اليهم إذارغبت فى خدماتهم . وفى شوارع بلجراد قد تجد بعض الأطفال يتسولون وكذلك قد تجد بعض السيدات المتسولات . وفى شوارع بلجراد تجد سيدات مسنات وشيوخا يجلس كل واحد منهم وأمامه ميزان طبى . . ويعرض خدماته لمن يرغب فى وزن نفسه نظير عشرة دنانير . . وهؤلاء يوجدون فى كل شارع تقريبا . . ويجلسون على مسافات متقاربة . . أما بائعو الجرائد فهم . . هم . . كما تجدهم فى كل مدينة . . من الرجال ومن النساء ومن الصبيان . يملأون الشوارع ويتغنون بالنداء على جرائدهم .. اجتذابا للعملاء ..

ولن أتحدث عن سائق التاكسى فى بلجراد . . فان التحدث عن سائق التاكسى فى أى بلد كلام معاد . . مثله مثل التحدث عن مغالطات الجرسونات وهو حديث يعرفه القارىء حتما . . ويعرفه كذلك كل انسان مارس معاملتهم . . ولكن الذى لا أدركه حتى كتابة هذه السطور هو وجود عربات تاكسى لها عدادات حاسبة . . على الراكب أن يدفع الحساب للسائق فى ضوء الأرقام المحسوبة . . أقصد فى ضوء آخر رقم يسجله العداد عند وصول الراكب إلى هدفه . . هذا النمط من عربات التاكسى موجود فى بلجراد . . ولكن يوجد نمط آخر من العربات . . عربات تاكسى أخرى لاتوجد بها عدادات ويحاسبك سائقوها إذا ركبتها حسبما يتراءى لهم . . وما عليك إلا الطاعة . ويقال إن سائق العربات الأخيرة يعتبرون فى نظر القانون مخالفين له ، ومع ذلك فأنت ترى العربات التى لاتوجد بها عدادات تجرى فى شوارع بلجراد ليلا ونهارا تحت سمع وتحت بصر رجال الشرطة .. وحتى العربات ذوات العدادات الحاسبة تجدها دائما على خلاف . . فأنت تدفع أحيانا عن مسافة واحدة أجوراً مختلفة على الرغم من وجود العداد الحاسب فى كل عربة تركبها . .

وبنات الهوى تملأن شوارع بلجراد وفنادقها . . أما ضحاياهن فهم الأجانب غير الطلبة ، ومن الغرباء عن المدينة . . فمعظم الطلبة الأجانب لهم من زميلاتهن الطالبات خير رفيق . . ومن أهم الاسلحة التى تستخدمها بنات الليل ، عدا ماتحتاج إليها انوثتهن . اجادة اللغات الاجنبية . . خصوصا اللغة الإنجليزية ذات اللهجة الاميريكية . . ويلاحظ أن البغاء يعتبر مخالفة قانونية فى يوغسلافيا . . وقد ابلغنى الاستاذ « فودينلتشى فالدمير » أحد خبراء المعهد الجنائى ببلجراد أنه يوجد بالمدينة نحو ٣٠٠ رجل يحترفون ممارسة البغاء المثلى . . وقد أكد أن هذا هو الرقم المسجل . . . ولعل ما خفى كان

أعظم .. ففي مجالات مثل هذا النوع من أنواع النشاط البشرى ، بالضرورة، أرقام أخرى عديدة غير منظورة ..

وذوات الشوارب واللحى من النساء يكثرن فى مدينة بلجراد .. تجدهن فى الشوارع وفى الفنادق .. وفى الحوانيت .. وفى المصالح والدواوين .. وحتى فى السجون . وكانت نسبتهن فى احدى دور الحبس بالقرب من بلجراد نحو ٢٠ ٪ من المسجونات .. وأنا لم تفاجئنى رؤية هؤلاء النساء .. فقد رأيت بعضهن فى لندن .. ولكن كن فى هذه المدينة الكبيرة نادرات .

ذوات الشوارب واللحى

عندما رأيت ، لأول مرة فى حياتى ، سيدة شابة ينمو شاربها تحت أنفها ويبدو واضحا لكل من له عينان ، كما ينمو على ذقنها وعارضيها شيء يشبه اللحية . . ويبدو كذلك واضحا . . انتابتنى مشاعر عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر . . مشاعر الرعب والهلع . . والدهشة . . والخجل . . كان ذلك فى مدينة لندن منذ أكثر من خمسة عشر عاما . . كنت إذ ذاك واقفا انتظر الأوتوبيس بالقرب من شارع اكسفورد ، وكان معى أناس كثيرون . . يقفون أمام المحطة ، وأنا معهم ، فى صف طويل . . وأنا أذكر الآن أنه بينما كنت واقفا فى الصف الطويل بدا لى أن الأوتوبيس قد تأخر قليلا . . وبدا أنه انتابنى ، بسبب ذلك ، بعض الملل . . فالتفت إلى الوراء ، لمجرد التغيير ، وربما فعلت ذلك أيضاً لمجرد قتل الوقت . وقصدت من هذا الالتفات إلى الوراء ، طبعا ، ملاحظة الواقفين والواقفات فى الصف البشرى الطويل .. وبينما أنا أفعل ذلك .. عندئذ .. رأيتها .. رأيت ، لأول مرة فى حياتى ، سيدة شابة ذات شارب ينمو تحت انفها كما ينمو على ذقنها وعارضيها شيء يشبه اللحية . . كانت هذه السيدة الشابة واقفة فى الصف الطويل على بعد خطوات منى .. ولابد أن شيئاً ما قد حدث .. كالتقاء عينى بعينيها مثلا .. ولابد أن بعض قسمات وجهى قد افصحت عن بعض مشاعرى .. فقد أحسست بتيار من الغضب يتدفق من عينيها ، أقصد عينى السيدة ذات الشارب ومايشبه اللحية . . وأحسست وكأن هذا التيار يلفح وجهى .. ربما كان ذلك وهما وخيالا .. وربما كان صحيحاً . ولكننى أذكر ، كرد فعل لما بدا أنه حدث فى المجال النفسى الذى كان بينى وبين هذه السيدة عندما التفت إليها والتقت عيناى بعينيها ، أو ربما لما حدث فى داخل نفسى أنا دون أن

يحس به أحد ، السيدة ذات الشارب وما يشبه اللحية أو غيرها ، أذكر ..
إننى التفت إلى الأمام فى سرعة . . ولم يكن الأوتوبيس ، حتى هذه اللحظة
قد حضر . . وانتظرت برهة . . ثم أعدت الكرة خطفا . . أى التفت إلى
الوراء مرة ثانية بأقصى سرعة .. ولم تلتق عيناى بعينى السيدة ذات الشارب
وما يشبه اللحية فى هذه المرة .. إننى الآن متأكد من ذلك .. ولكنى شعرت
بمشاعر عديدة منها الرعب والهلع والدهشة .. وكذلك شعرت بالخجل .
وعندما رأيت أخريات فى مدينة لندن أيضاً ، وكن ، فى الواقع ، قليلات...،
أحسست بنفس المشاعر ولكن بدرجة أقل . ولم أبحث كثيراً عن أسباب
هذه المشاعر فى نفسى . فانا شخص حامل ثقافة معينة من المجتمع الذى
نشئت فيه اجتماعيا .. واتمثل جهازا معينا من القيم الاجتماعية .. تعطى قيمه
معانى اجتماعية لكل سلوك اجتماعى معين أو لكل شكل اجتماعى معين
أو لكل موقف اجتماعى معين ، قد تتفق مع معانى هذه الأشياء عند بعض
الثقافات الأخرى وأجهزة القيم الاجتماعية الأخرى فى المجتمعات الأخرى،
صغيرها وكبيرها، وقد تتنافر وتختلف .. فالمرأة فى ثقافتنا المصرية العربية،
على وجه العموم ، لها نموذج اجتماعى معين من حيث شكلها وملبسها . ومن
حيث تصرفاتها .. وحتى من حيث طريقة سيرها وإيماءاتها . . ونظرات
عيونها . لكل من هذه الأمور .. وغيرها .. معنى اجتماعى معين .. قد يكون
معنى مقبولا . . أى يرضى عنه المجتمع ويتوقعه . . وقد يكون معنى غير
مقبول .. أى لا يقره المجتمع ..

ونحن إذا تذكرنا المعانى الاجتماعية المحببة التى يعطيها مجتمعنا لـ
« الخال » أو « الشامة » ، ولـ « طابع الحسن » ، واللون الاسمر .. وللعيون
السوداء .. ونذكرنا ، أيضاً ، المعانى الاجتماعية للرجل « الاشقر » . « عدو
الشمس » ، وللرجل الذى لاشارب له ولالحية « الا جرود » .. و « صباح
القرود ولا صباح الاجرود » ، والرجل الطويل نسبيا « طويل وهبيل » ،

والقصير نسبياً «قصير ومكير» و «شبر وقطع» ، وغيرها من المعانى الاجتماعية التى تعطى لذى الستة الاصابع .. وأصحاب العاهات مثل الاعور «أبو فانوس مطفى» .. وغيرهم وغيرهم .. وكلها معانى اجتماعية غير محببة ولا مقبولة فى مجتمعنا وتحمل فى طياتها السخرية اللاذعة فى بعض الاحيان .. وإذا نذكرنا بهذه المناسبة ، المعنى الاجتماعى للون الاسمر والمعنى الاجتماعى للون الاسود فى مجتمع كمجتمعنا ، وقارنا هذين المعنيين بما هو موجود فى مجتمع كالمجتمع الاميريكى المعاصر .. وكم عانيت ، كثيرا . من المواقف المؤذية اللا إنسانية التى واجهتها فى بوسطن ، وهى مدينة تقع ، كما يعلم القارىء ، فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة ، وليس فى جنوبها ، وهى المدينة التى يذكر التاريخ أن شرارة الحرية قد انبعثت منها أول ما انبعثت ، والتى ضحى فى سبيلها ، أى فى سبيل الحرية ، الزنوج والبيض جنبا إلى جنب ، وذلك بسبب سمار جلد وجهى وسواد عينى .. إذا نذكرنا كل ذلك .. لوجدنا .. أن جسم الإنسان ، كله أو بعضه ، له مكانة اجتماعية ذات حساسية معينة عند الناس .. وأن أى شىء فيه خارج عن المألوف له معنى اجتماعى معين . حتى بعض وظائف هذا الجسم ينسب لبعضها معانى اجتماعية معينة فى بعض الاحيان .. وأقصد بعبارة «خارج عن المألوف» هذه أن يكون قليلا أو نادراً .. أو أن يكون صاحبه .. أى صاحب الجسم ينتمى إلى أقلية من الاقليات فى المجتمع ، وتكون بالضرورة ، أقلية مستضعفة كأقلية الزنوج فى الولايات المتحدة ، وليست أقلية تملك السلطة وتحكم كأقلية البيض فى جنوب أفريقيا ، أو كالاقلية الحاكمة فى سجن من السجون . واعطاء الشىء الناقص فى جسم الإنسان أو فى وظائفه ، أو الزائد ، أو المغاير .. أى اعطاء الشىء الخارج عن المألوف معنى اجتماعيا حسنا أو مقبولا أو معنى اجتماعيا غير حسن أو قبيحا .. يرجع ؛ بالضرورة ، إلى الظروف التاريخية ، والظروف الاقتصادية ، والظروف السياسية .. المجتمع الذى يعطى المعنى . ولما كانت هذه الظروف ، كلها ،

فى تغـير مستمر .. من مجتمع إلى مجتمع .. ومن وقت لآخر .. كذلك تتغير هــذه المعانى ؛ حسنا وقبحاً ، من مجتمع إلى مجتمع .. ومن وقت لآخر ..

وها نحن فى النصف الثانى من القرن العشرين . فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، نجد النساء فى ريعـان الشباب ، وهن مازلن أقلية ، ولـكن أقلية كبيرة ملفتة للانظار ، يتركن الشعر تحت انوفهن يطول .. وكذلك الذى على ذقونهن وعوارضهن .. ويبدو الشعر على سيقانهن طويلا كأنها سيقان رجال يعيشون فى المجتمع المصرى العربى .. وهن .. أى هؤلاء النسوة ، مع ذلك ، يلبسن ملابس النساء .. وهن ، مع ذلك يزين وجوههن بالمساحيق البيضاء والحمراء ويتبرجن تبرج الجاهلية .. وهن ، مع ذلك ، يصادقن الرجال . ويتزوجن .. وينجبن أطفالا ..

وإذا كنت ، فى ضوء تجاربى الماضية ، لم أبد اكتراثا حقيقيا عند رؤيتى المائة الأولى من ذوات الشوارب واللحى ، أو المائة الثانية منهن ، فى شوارع بلجراد .. وفى غيرها من الأماكن .. كالفنادق .. والحوانيت .. والمصالح والدواوين ... وذلك فى خلال فترة قصيرة من وصولى إلى هذه المدينة .. أى فى خلال فترة لاتزيد على الأسبوع الواحد .. ، فقد بدأت .. بعد ذلك ، خصوصا بعد أن تزايد عدد هؤلاء السيدات الشابات من ذوات الشوارب واللحى ، بدأت أتساءل عن سر هذه الظاهرة الاجتماعية .. أسائل نفسى تارة .. وأسال الناس .. تارة أخرى ، ثم أعود وأسائل نفسى .. وهكذا..

وقد سألت من الرجال اليوغسلافيين كثيرين ، المتزوجون منهم وغير المتزوجين ، على اختـلاف مهنهم وأعمارهم .. سألت بواب الفندق .. والاخصائى الاجتماعى .. والخبير الجنائى .. والخبير القانونى .. والاخصائى النفسى .. ورجال الشرطة .. وكان منهم الشاب .. والرجل .. وما يمكن أن يقول

الناس عنه كهلا ، وقد سألت ، أيضا ، بعض السيدات اليوغسلافيات العاديات . . أقصد اللاتى لاشارب لهن ولا لحية . . المتزوجات منهن وغير المتزوجات .. على اختلاف مهنهن وأعمارهن .. كانت منهن ربات البيوت ، وبعض العاملات فى المصانع . . وفى الحوانيت . . وبعض الموظفات فى دواوين الحكومة . . وكن من الشابات . . ومن السيدات فوق الأربعين . . وكانت منهن سيدة قد بلغت سن الثمانين . .

أما الرجال . . فقد قالوا جميعا . . وكأنهم على قلب رجل واحد . . بما يمكن أن يكون معناه :

— نحن نعشق نساءنا ذوات الشوارب واللحى . . لأنهن ثائرات مثيرات . .

أما النساء . . فقد اختلفن . . أى اختلفت آراؤهن . . قال البعض منهن أن المسألة تتعلق بالهرمونات التى تفرزها غدد معينة فى الجسم . . أى أن وجود هذه الشوارب واللحى يرجع ، بالضرورة ، إلى اختلال فى هذه الغدد التى تفرز هذه الهرمونات . . . وقد قلن ذلك وهن يهززن أكتافهن غير مكترثات . . أما البعض الآخر فقد وافقن الرجال . . وكانت ابتساماتهن تعلو وجوههن . . فى خبث نسائى محبب . . ، وانطلقت واحدة منهن ضاحكة ضحكة ملأت وجهها وأفاضت . . أى ضحكة كبيرة من الأذن للأذن . . ورن صوت الضحكة فى اذنى رنينا مازلت أسمع صداه حتى كتابة هذه السطور . .

وفى المجتمع اليوغسلافى ، فى مدينة بلجراد ، وفى غيرها ، نجد أن الكثير من الرجال ذوو شوارب . . وهى كثيفة أحيانا . . خفيفة أحيانا أخرى . . وهى طويله أحيانا . . قصيرة أحيانا أخرى . .

ترى اذن هل بعض السيدات اليوغسلافيات الشابات يتشبهن ببعض

الرجال اليوغسلافيين ؟ أو أن الأمر على عكس ذلك ؟ .. نحن نعلم فى مجتمع كالمجتمع الانجليزى أو المجتمع الأمريكى يندر أن يوجد رجل ذو شارب أو ذو لحية .. فهل يمكن القول إن الرجال الانجليز يتشبهون بنسائهم اللاتى فى أغلب الحالات إن لم يكن فى كلها ، لاشارب لهن ولا لحية ؟.. ولكننا نعلم أن النساء .. كل النساء .. ولا أقصد المراهقات منهن .. يهتممن،عادة، بآراء الرجال الناضجين فيهن .. وإذا كان الرجال اليوغسلافيون ، الذين يجب أن نفترض توفر النضج العاطفى ، على الأقل ، فيهم.. يعشقون ذوات الشوارب واللحى من نسائهم ، والاخيرات يعرفن ذلك ما فى ذلك شك .. فلماذا اذن تغير ذوات الشوارب واللحى اليوغسلافيات من أمرهن شيئا ، لماذا تطلبن، مثلا ، معونة أخواتهن المصريات العربيات أو غيرهن .. وتأخذن عنهن الأساليب التى تذهب بالشعر من تحت الانوف ومن على الذقون والسيقان؟.. أننى لا انتظر أن يحدث ذلك فى الوقت الحاضر . . . ، تماما كما لا انتظر أن يقلع الناس عن تعاطى الحشيش فى مجتمعنا ، وهم أقلية أيضا ، طالما تتردد الاسطورة ، بين متعاطيه عن تأثيره الجنسى . والجنس ، مع ذلك ، كما يبدو فى الحالتين ، براء . . ولكنها الأساطير تستشرى فى المجتمعات الإنسانية لتبرر وجود بعض النماذج السلوكية البشرية فيها ، حتى فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . ولا يكشف هذه الأساطير ، ولا يكشف الرواسب الاجتماعية فى المجتمعات سوى الدراسة العلمية لكل منها . . وفى ضوء هذه الدراسة العلمية نتعرف على العوامل والاسباب الداعية إلى بقائها ، فضلا عن الوظائف الاجتماعية الحقيقية التى تبرر وجودها .

السماء تمطر ثلجاً

رأيت السماء تمطر ثلجاً مراراً . . رأيتها فى مدينة لندن فى شتائين . . وفى مدينة بوستن فى خلال أشهر الشتاء ثلاث سنوات .. ورأيت الثلوج تتوج قمم الجبال فى فرنسا فى مقاطعة سافوى العليا .. وهانذا أرى السماء فى المدينة البيضاء تمطر الثلوج ونحن ما زلنا فى شهر نوفمبر . وكنت قبل ذلك أرى السماء تمطر الثلوج فى أفلام السينما .. كنت مجرد متفرج .. مجرد واحد من المتفرجين .. أمارس الرؤية فقط على الشاشة الفضية .. وإننى أذكر ، فى أول مرة أواجه السماء تمطر الثلج أو على وشك أن تمطر الثلج ، إننى كنت أواجه أيضاً بعض المشاعر الانسانية . منها وأهمها مواجهة المجهول.. ومواجهة المجهول كما يعلم القارىء شىء رهيب ومع ذلك فالناس فى ضوء الظروف الاجتماعية يواجهون المجهول على الدوام .. ولكنهم لحسن الحظ، لايشعرون ، فالناس، وأنا منهم ، والقارىء أيضاً منهم، يعيشون على الدوام على الافتراضات ، فأنا أفترض مثلا أن القلم الذى فى يدى سيكتب ، وأن الكرسى الذى أجلس عليه سيحملنى ، وأن الشمس ستشرق فى الصباح وستغرب عند المغيب . . وإننى فى أول كل شهر سأحصل على مرتبى ، وسأدفع الإيجار .. ألخ .. ألخ .. كلنا نواجه المجهول على الدوام .. أى أننا نعيش على الافتراضات .. وكلنا ، لحسن الحظ، لانشعر بذلك .. أو نحاول أن لانشعر بذلك .. أما عندما واجهت احتمال نزول الثلوج من السماء ، لأول مرة فقد كنت أواجه المجهول وأنا أشعر بذلك .. ولم أكن أدرى ماذا أفعل . ولكنى كنت أعيش مع الناس .. وكنت متأكداً من أن هؤلاء الناس سيواجهون المجهول .. أقصد ما رأيته مجهولا عندى .. مثلى..والحياة مع الناس تعنى أشياء كثيرة . منها الشعور بالانتماء الاجتماعى . والشعور

بالانتماء الاجتماعي حاجة يسعى الإنسان الفرد منا أن يشبعها حيثما كان . . وفى كل حين . واشباع هذه الحاجة ييسر هذه الحياة مع الناس . . ويعرف هذا الشعور بالانتماء الاجتماعي كل الناس العاديين . . فهو مادة روحية أساسية . . لايستغنى عنه رجل عادى أوامرأة عادية . . فهو يجعل للحياة طعما . . لأنه . . أى الشعور بالانتماء الاجتماعي إذا ما أشبع ، يزود الشخص منا بالزاد الحى الذى يساعده على السير فى الطريق قدما . . مهما كانت مصاعب الطريق . . ومهما كانت العقبات . . فهو يسير مطمئنا . . واثقا من أن وراءه آخرين يهتمون بأمره كما يهتم هو بأمرهم . . يسعدهم نجاحه كما يسعد هو بنجاحهم . . يفرحون بلقائه . . كما يفرح هو بلقائهم . .

وأمطرت السماء ثلجا مرارا . . وواجهت ذلك مرارا وتكرارا . . وواجه الناس معى فى كل مرة هذه الثلوج . . وفرح منهم من فرح . . وشقى منهم من شقى . . ولم يكترث منهم من لم يكترث . . ولكن واجه الجميع هذا الموقف . . فى كل مرة . . كل حسب ثقافته . . وكل حسب امكانياته . . وظلت الحياة تسير . . الناس يعملون وينتجون . . يأكلون ويشربون وينامون . . العشاق يحبون . . ويتزوجون . . والأطفال تولد . . والجريمة ترتكب . . وظلت الحياة تسير . . كان هناك تغيير واضح . . الطبيعة متغيرة والعلاقات الاجتماعية مسها التغيير كذلك . . ولكن التغيير الحادث ، وإن كان تغييرا كيفيا ، لم يخرج عن المألوف . . لم يخرج عما هو متوقع . .

انظر إلى مدينه بلجراد ، والسماء تمطر ثلجا . . انها مازالت مدينة بلجراد . . قلب نابض . . حركة دائمة . . علاقات اجتماعية قائمة . . انها مدينة بلجراد كما توقعها أهلوها فى فصل الشتاء . . لم يتغير عندهم شيء . . لم يخرج شيء عن المألوف عندهم . . لقد أصبحوا يأكلون أكثر . . ويلبسون ملابس مناسبة . . ويحرصون على الفحم الذى يغذى المدافىء . . مدافىء

البيوت .. والحوانيت . . ودوارين الحكومة . . لقد تعودوا على ذلك من قبل .. منذ أن دبت فيهم الحياة .. لقد عاشوا على هذه الافتراضات لحسن الحظ وهم لا يشعرون .. وتوقعوها .. أى توقعوا تحقيقها .. ، وعندما تحققت وجاء الشتاء وجاءت معه الثلوج أقروا عينا . . وواجهوا الواقع . . وظلت الحياة تسير . .

فليهنأ أطفال مدينة بلجراد بثلوج الشتاء . . دعهم يمرحون ويلعبون.. دعهم يعدون العدة لممارسة هذا المرح وهذا اللعب بأساليبهم التى هيأها لهم المجتمع . . واسعد بالنظر إليهم والسعادة تملأ المناخ الاجتماعى الذى يظللهم . .

فليهنأ الشبان والشابات فى مدينـــة بلجراد بثلوج الشتاء . . دعهم يمارسون بعض ماكانوا يفعلون وهم صغار . . ليعيشوا فى الماضى لحظات .. ليسعدوا لحظات .. وراقبهم وأنت مغتبط .. وأنت متفائل . . واستمع لرنين الضحكات تتحدى . . وابتسم ملء الفؤاد . . تماما كما فعلت . .

وحول المدافىء فى البيوت تجد الكبار من النساء ومن الرجال . . تجدهم يجترون الذكريات . . وتجدهم يسخطون أحيانا ويستعجلون فصل الشتاء . . فصل الثلج والزمهرير أن يولى . وأن يذهب . ومع ذلك فقد أعدوا العدة لفصل الشتاء ولثلوجه ولزمهريره .. توقعوه . . وقد جاءهم .. وإذ يواجهونه تجدهم غير راضين .. وكل هذا غير مستغرب ولا غير مألوف.

والحياة تسير على الرغم من الثلوج . . أى على الرغم من العامل الجغرافى . . فالقول بتأثير العامل الجغرافى على السلوك البشرى قول سطحى . . إن لم يكن قولا مردودا يعوزه الدليل والبرهان . . إن الانسان نتاج علاقاته الاجتماعية مع الأعضاء الآخرين فى المجتمع . . منذ أن يولد

وحتى أن يموت بل حتى بعد أن يموت . والعلاقات الاجتماعية مصدرها الانسان وهو يتفاعل مع غيره من البشر فى بيئة ثقافية صنعها الانسان مع غيره من البشر وهم يواجهون ظروف اجتماعية معينة ومواقف اجتماعية معينة فى المجتمع الذى يضمهم ..

إن الثلوج لاتصنع ثقافة .. ولكن الانسان يصنع الثلوج ..

المجتمع اليوغسلافي وجهاً لوجه



الحياة الجنسية في المجتمع اليوغسلافي المعاصر

إن المجتمع . . أي مجتمع . . لكى يحيا . . ولكى يستمر فى الحياة . . يقوم عادة بأداء وظائف اجتماعية حيوية وأساسية لمن يعيش فيه من البشر ، لأعضائه من الرجال والنساء والأطفال على السواء . . ومن هذه الوظائف الاجتماعية الحيوية الأساسية ، مثلا ، تنظيم المادة البشرية القادرة فى المجتمع للقيام بتحويل المواد الأولية ، عن طريق أدوات الإنتاج الضرورية ، إلى سلع استهلاكية كالغذاء والملبس والمسكن . . الخ . ومن هذه الوظائف الاجتماعية الحيوية الأساسية ، أيضاً ، إيجاد الخطط الاجتماعية للاشباع الجنسى بطريقة يقرها المجتمع . . ولإنجاب الأطفال . . وتنشئتهم اجتماعيا ليستطيعوا أداء أدوارهم الاجتماعية التى يتوقعها ، منهم ، المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويشبون فى رحابه . .

ولكل مجتمع خططه الاجتماعية للاشباع الجنسى بطريقة يقرها ويتوقعها . . وهذه الخطط متطورة مع الزمن . . وتتغير . . مع مرور الأيام . .

والزواج إحدى الخطط الاجتماعية للاشباع الجنسى . . ولإنجاب الأطفال.. والزواج ، كخطة اجتماعية ، أنواع . . وأنماط . ، وكل نوع أو نمط يختلف باختلاف الأزمان . . وباختلاف المجتمعات . .

والزواج يؤدى ، عادة ، إلى تكوين الأسرة ، والأسرة ، أيضاً ، أنواع وأنماط تبعا لوظائفها . . وتبعا لحجمها . ، فهناك الأسرة التوجيهية بالنسبة لأطفالها . . وهناك أسرة التناسل بالنسبة للأزواج والزوجات .. ،

أى أن لـكل عضو من أعضاء المجتمع أسرتين . . إذا كان طفلا فأسرته توجيهية . . . وإذا كان زوجا أو زوجة فهى أسرة تناسلية . . ويستثنى من ذلك الأطفال غير الشرعيين . . ، فهؤلاء لا أسرة توجيهية لهم فى معظم الأحيان ، وعندما يشبون يتوقع أن يكون لـكل أسرة تناسلية . .

ومن حيث حجم الأسرة نجد الأسرة الفردية . . وهى مكونة ، عادة ، من الزوج والزوجة وأطفالهما فقط . . ، ونجد الأسرة الممتدة ، وتتـكون من عدة أجيال زمنية ، فيها الأب والأم وفيها أيضاً الجد والجدة . . ، ونجد كذلك ، الأسرة المركبة . . وهى مكونة ، عادة ، من عدة أسر ينتمى بعضها إلى بعض بصلة القرابة ويعيشون معاً معيشة واحدة . . ، أو يعيشون معا معيشة الجوار . .

وقد يكون الزواج مبكرا فى بعض المجتمعات . . أو فى بعض المجتمعات المحلية فى المجتمع الواحد . .، وقد يكون الزواج متأخراً كذلك . . والظروف الاقتصادية تلعب دورها ، عادة ، فى تحديد وقت الزواج . .، ومهما يكن من الأمر فالمجتمعات تنظم الحياة الجنسية بين الجنسين قبل الزواج وفى أثنائه وبعده . . ، أى بعد أن ينتهى الزواج بالطلاق أو الانفصال أو موت أحد الزوجين . .، وذلك وفقاً لأجهزة قيمها الاجتماعية . فنجد الاختلاط الجنسى مباحاً قبل الزواج وفى أثناء الزواج وبعد الزواج فى بعض المجتمعات . .، ونجده غير مباح قبل الزواج وفى أثناء الزواج وبعد الزواج فى بعض المجتمعات الاخرى . .،والاختلاط الجنسى هنا قد يعنى الحرية الجنسية . . ، وقد يعنى أيضاً ، مجرد الاختلاط بين الجنسين فى الدراسة ، مثلا ، وفى أوقات الفراغ وفى العمل . . وفى غير ذلك من المجالات الاجتماعية . . ،ويفترض فى حالة الاختلاط الاخير وجود مستوى مقرر من التربية الجنسية بين الاعضاء من الجنسين . .

ولابد أن يكون القارىء قد لاحظ الفرق بين كل من المفهومين :

الحرية الجنسية والتربية الجنسية . . . إن الفرق بينهما شاسع جداً . . ونحن في مجتمعنا المصرى العربى المعاصر حريصون جد الحرص على أن تكون العلاقات بين أبنائنا وبناتنا فى ضوء تربية جنسية لا حرية جنسية . . تربية جنسية مبنية على تراثنا البناء . . وعلى قيمنا الاجتماعية السليمة . . ومثلنا العليا البسيطة غير المعقدة . .

والمجتمع اليوغسلافى المعاصر قد رسم خططه الاجتماعية للاشباع الجنسى بطريقة يقرها ويتوقعها . . فالزواج نظام معترف به ، وهو زواج مدنى وليس زواجا دينياً . . ، وحقوق الزوج والزوجة مكفولة له بنص القانون . . وقد حدد القانون سن الزواج لكل من الجنسين بسن ١٨ عاما . . ، وقد يصرح بالزواج فى سن ١٦ ، وفى سن ١٧ ، فى بعض الاحيان . . ، وذلك عن طريق المحكمة . . ، ومع هذا فالزواج ، خصوصا بين الذين يعيشون فى المدينة ، يعتبر متأخرا نسبيا . فترى الشاب لا يتزوج قبل سن الخامسة والعشرين عادة . ، وسن الزوجين ، متقاربة ، فى معظم الاحيان . .

ويعنى هذا أن المجتمع اليوغسلافى المعاصر يعترف بتكوين الاسر ، ويقرها . . ، فالاسرة التوجيهية موجودة فى هـذا المجتمع . . وكذلك الاسرة التناسلية بالضرورة . . أما من حيث حجم الاسرة فهى أسرة فردية فى معظم الاحيان . . ، وخصوصا فى المجتمع الحضرى . . أى فى المدينة . . وهـذه الظاهرة . . . ظاهرة اتجاه تكوين الأسرة نحو الاسرة الفردية ، موجودة عندنا ، أيضاً ، فى المجتمع المصرى العربى المعاصر . . ، وخصوصاً فى المجتمع الحضرى كذلك . .

والاطفال لا يرحب بهم كثيراً فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . . ، فيلاحظ أن عددهم قليل فى الاسرة الواحدة . . ، ونجد أن الاسرة فى جمهورية سلوفينيا ، مثلا ، لا تنجب أكثر من طفل واحد . . وهم ، أى أصحاب

الأسر ، هناك ، أى فى جمهورية سلوفينيا .. ، يفضلن شراء سيارة على على انجاب طفل . . ويستثنى من ذلك ، بالطبع ، أصحاب الأسر الذين يسكنون فى الريف . .

وحق الطلاق مكفول لكل من الزوجين فى يوغوسلافيا . . ، فمن حق كل من الزوجين أن يطلب الطلاق فى حالات الزنى ، مثلا ، وفى حالات إضرار أحد الزوجين بالآخر ، وإذا هجر أحدهما الآخر مدة تزيد على ستة شهور ، وإذا عرف أحدهما عن الآخر ماضياً مشيناً لم يكن يعرفه قبل الزواج . .

ومع كل ما سبق ، فإننا نجد ، مع الأسف ، أن الحرية الجنسية لاالتربية الجنسية تسود المجتمع اليوغسلافى المعاصر . وهى ، أى الحرية الجنسية ، سائدة قبل الزواج وفى أثناء الزواج وحتى بعد الزواج . .

وتعنى الحرية الجنسية ، فى رأيى ، وجود الأطفال غير الشرعيين . .وهم موجودون فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر .. ، وتعنى أيضاً إقرار الاجهاض . . وهو مكفول فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر .. ، وتعنى كذلك . . وجود البغاء وانتشاره . والبغاء منتشر فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر خصوصاً فى العاصمة وفى المدن الكبيرة وفى موانى ساحل البحر الادرياتيكى ، . ، وتعنى .. فوق ذلك كله وجود الانحرافات الجنسية المتعددة . . ، ومنها على سبيل المثال ظاهرة العملية الجنسية المثلية . . وهذه الظاهرة حقيقة واضحة فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ..

وأصارح القارىء . . فأقول : إننى بسبب بعض الظروف .. ، معظمها ظروف إجتماعية . . وبعضها ظروف شخصية . . كنت من الداعين إلى الحرية الجنسية بين أبنائنا وبناتنا . ، واستمرت دعوتى إلى هذه الحرية ،

على مستوى الاقتناع بها ، زمناً طويلا . . ، حتى واجهت الواقع . . واقع المجتمع الانجليزى .. والمجتمع الأمريكى .. والمجتمع الدانماركى ،. وغيرها وقد حيرنى هذا الواقع المر فترة طويلة . . ، وكنت أسائل نفسى أحياناً . . ، وأسأل الناس ، العاديون منهم والعلماء المتخصصون ، أحياناً أخرى . . ، فكنت أقول ، مثلا ، إن هذه المجتمعات تدوفرت الحرية الجنسية لابنائها وبناتها ، ، وقد ضمنت لهم حياة جنسية لاتعقيد فيها .. فلماذا ، إذن ، يوجد فيها البغاء .. ؟ ولماذا يوجد فيها بعض الانحرافات الجنسية مثل ظاهرة العملية الجنسية المثلية ؟ . ،

إن ظاهرة العملية الجنسية المثلية . مثلا ، لاتوجد ،عادة إلا فى المجتمعات المقفولة . . المجتمعات التى تمنع العلاقات الاجتماعية ، إلا بشروط خاصة لامبرر لها فى الغالب ، بين البنت والولد فى سن معينة . . فى سن البلوغ مثلا . . ، المجتمعات التى لاتعنى المرأة عند رجالها أكثر من حذاء . . ، يستطيع الرجل منهم ، فى سهولة وفى يسر ، أن يستبدل به آخر إذا كان قادراً على دفع الثمن . . ، المجتمعات التى لاحقوق لنسائها فيها . . ولا حياة إجتماعية عريضة . . عميقة . . مثمرة . . فيها لهن . . أى المجتمعات التى تعامل أعضاءها من الجنسين معاملة ثنائية . . فالرجال لهم معاملة معينة . . والنساء لهن معامله تخالف معاملة الرجال . . ، وتكون المعاملة الأولى . . أى معاملة الرجال ، عادة متميزة . . ، وتكون معاملة النساء ، عادة ، فى مستوى الحضيض . .

وهذا تبسيط ، فى الواقع ، فى معالجة هذه الظاهرة . . ولكن هذا ما نلاحظه ونقرأ عنه فى الكتب العلمية المتخصصة . . والأمثلة على ذلك كثيرة . . فلدينا مجتمع محلى مقفول هو مجتمع واحة سيوة . . إذا لاحظناه وجدنا الظاهرة فيه،. ولدى غيرنا بعض المجتمعات المحلية المقفولة المماثلة . .

ومهما يكن من الأمر فلعل هذا التبسيط يلقى بعض الضوء . . ولكن يجب أن لا نكتفى بهذا التفسير .. ولعل الدراسة العلمية للظاهرة المشار إليها أن تكون شفاء لكل غليل . . ، فقد لاحظت ، مثلا ، أن إقتصاديات المجتمع السيوى قائمة . أساساً على التجارة عن طريق القوافل .. التى تسافر إلى الشمال وإلى الجنوب . . وأن هذا العمل التجارى عن طريق القوافل محط كل الأنظار وأمل كل الآمال . . ولكنه يحتاج إلى تدريب طويل . . يبدأ فيه الشخص وهو صبى .. وترى الآباء الطموحين يرسلون أبناءهم إلى هذا العمل الأساسى . . ويذهب الصبيان مع رجال القافلة يتلقون أسرار المهنة . . ويسافرون معهم ، عادة ، أياماً وشهوراً . . ويجتمع الرجال والصبيان جميعاً . . يعملون سوياً . . ويأكلون سوياً . . وينامون كذلك . . ولا توجد نساء مع رجال القافلة ولكن يوجد المستضعفون من الصبيان .

وإذا أضفنا الملاحظات الأخيرة إلى ما قيل عن سمات المجتمع المحلى المقفول ربما يخرج القارىء ببعض النتائج . ولكنى أكرر ، وألح فى هذا التكرار ، فأقرر بأن الدراسة العلمية لهذه الظاهرة .. ظاهرة العملية الجنسية المثلية .. أمر ضرورى للغاية . . ،وخاصة إذا تمت فى المجتمع المحلى الذى لدينا .. المجتمع المقفول .. أقصد مجتمع واحة سيوة .. وكفانا ما نسمعه ، أحياناً ، من آراء وتفسيرات . . فقد أكد لى ، مثلا ، شخص مسئول ، وهو شخص مثقف ما فى ذلك شك ، وجود سبب واحد لهذه الظاهرة فى مجتمع واحة سيوة .. ، وعلى الرغم من أننى لا أؤمن بوجود سبب واحد أو عامل واحد لأية ظاهرة ، مادية كانت أو إنسانية ، فقد سألته :

— « وما هو هذا السبب ؟ »

وأجاب فى حماسة واضحة : وفى ثقة العالم العارف قائلا :

— «إن نساء هذا المجتمع (يقصد مجتمع سيوة) قبيحات . . ، وينقصهن التجميل واستخدام أدوات الزينة كما تفعل أخواتهن ذلك فى المدينة (يقصد مدينة القاهرة) . مثل إستخدام « البودرة » و « الروج » . . ، فإذا تعلمن ذلك . ، ومارسنه ، وصار لهن عادة . أصبحن جميلات فى عيون رجالهن وعلى الأخص أزواجهن . ، ومن ثم يترك الأزواج هـذه العادة القبيحة (يقصد ممارسة العلمية الجنسية المثلية) . »

وسأترك للقارىء الحـكم على قيمة هذه الآراء والتفسيرات . ، وأعود بعد هذا الاستطراد الطويل . . ، وليعذرنى القارىء ، فأقول :

كنت ، ومازلت ، أسلم بوجهة النظر الخاصة بالمجتمعات المقفولة . . ، وكنت ، أيضاً ، أسلم ، وما زلت ، بالإضافة التى أضفناها إليها . . ، وهى المتعلقة باقتصاديات المجتمع . . وكنت ، ومازلت ، كذلك . . أسلم بتأثير كل ذلك ، وغيره ، مما لا أعرفه ويجب أن تـكشف عنه الدراسات العلمية فى مجتمعنا على وجه الخصوص . . وبعلاقة هذا التأثير بوجود ظاهرة الجنسية المثلية فى مجتمع كمجتمع واحة سيوة . . وفى غيره من المجتمعات المحلية المقفولة المماثلة فى المجتمعات الأخرى . . ، ولـكننى ، مع كل ذلك ، أعيش فى حيرة من أمرى . . ، وأحاول أن أتساءل ، وأسأل الناس . . العاديون منهم والعلماء المتخصصون . عن عوامل وجود هذه الظاهرة فى المجتمعات المفتوحة . . أى المجتمعات ، مثل المجتمعات الغربية ، التى أباحت الحرية الجنسية فيها لأعضائها من الجنسين ، وباركتها ، بل واعترفت بأطفالها غير الشرعيين . . وضمنت لهم الأمن والإيمان ، كما ضمنت لأمهاتهم الـكرامة . . وإشباع حاجة الشعور بالانتماء الإجتماعى . .

وقد زادت حيرتى عندما واجهت الواقع فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . ، وهو مجتمع مفتوح كذلك . . ولـكنه مجتمع يخالف المجتمعات

الغربية فى معتقداته وفى فلسفته وفى نظمه . . أى أنه يخالف المجتمعات الغربية ، جذريا ، فى الكثير من الأمور الحيوية . .

إن مالدى عن الواقع فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، فى هذا الشأن ، من المعلومات الرسمية ، مع الأسف الشديد ، ضئيلا للغاية . . فالأخصائية النفسية مس « ميليسا بتروفيتش » تؤكد ، مثلا ، وجود الأطفال غير الشرعيين فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . ، وهى تقرر أن الأطفال غير الشرعيين ، فى جمهورية سلوفينيا ، أكثر عدداً مما فى الجمهوريات اليوغسلافية الأخرى .

وعندما قابلت مديرة « مركز الخدمة الإجتماعية بحى ستاربجراد » ، وهو أحد أحياء مدينة بلجراد ، السيدة « ميلونكا يوفا نشيفتى » ، وزميلتها السيدة « ميريانا بابتش » ، إحدى الأخصائيات الإجتماعيات بالمركز ، أكدتا ، أيضاً وجود ظاهرة الأطفال غير الشرعيين . ولما طالبتهما ببعض الإحصاءات الرسمية الدالة على وجود هذه الظاهرة ، لم أجب إلى طلبى . . وقالتا ، وكأنهما تعتذران ، إن عدد حالات الأطفال غير الشرعيين ليس فى ازدياد . . لأن الإجهاض مباح . . أى أن المؤسسات الإجتماعية والهيئات الطبية المسئولة تسمح به . . خصوصاً إذا كانت الحامل شابة غير متزوجة وسنها لايزيد على ١٨ عاماً . . ، وفضلا عن بعض الحالات الأخرى التى يسمح بالاجهاض فيها مثل حالات المرض . . وحالات الفقر . .

وقد أكد لى السيد «قاسم هودجيتش» مدير مصلحة الأمن العام وجود ظاهرة البغاء وانتشارها فى مدن يوغسلافيا وخصوصاًفى العاصمة وفى مدن ساحل بحر الأدرياتيك . وقد أكد سيادته،أيضاً أن ممارسة البغاء مجرد مخالفة قانونية . . ولا أرقام رسمية عنده تدل على حجم الظاهرة . . أو تدل على

اتجاهها . . ، وقد عرفت من مدير مصلحة الأمن العام ومن مصادر أخرى عديدة أنه لا توجد تدابير وقائية لمواجهة ظاهرة البغاء فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . وأن العلاج ، إذا وقعت المخالفة . وضبطت الواقعة . . هو الحبس . . والعلاج الطبى . . إذا لزم الأمر . . ومدة الحبس ، عادة ، قصيرة فقد علمت من السادة « بوجود وجاليدش » . و « ازدرافكوفيتش ميلوراد » و « نيكولا متروفيتش » ، و « برانيسلاف ميتيش » وهم المسئولون عن دار الحجز فى مدينة بلجراد ، أن متوسط مدة الحبس فى هذه الدار لا يزيد على ٢٧ يوماً . وهذه مدة قصيرة لا تجدى شيئاً ، ولا يمكن أن يتم فيها علاج .. الا إذا قصد بالعلاج العقاب . . وهذا يتنافى مع تدابير كثيرة أخرى أكثر ايجابية توجد فى هذا المجال . . ، مجال معاملة المخالفين للقانون على مستوى الجنح والجنايات ، فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . .

وقد أكد لى السيد « فودينلتشى فالدمير » أحد خبراء المعهد الجنائى فى مدينة بلجراد وجود ظاهرة العملية الجنسية المثلية . . ، أكد وجودها فى بلجراد نفسها . . وأكد وجودها فى أماكن أخرى . . فى جمهورية بوسنيا ، مثلا ، . . وبين الأقلية الألبانية الموجودة فى المجتمع اليوغسلافى ويطلق عليهم « شيبتارى » . . وفى إحدى القرى بالقرب من مدينة « أوسييك » بجمهورية سلوفينيا . . وفى غيرها . .

وفى ضوء ملاحظاتى الخاصة عن هذا الموضوع . . ، وفى ضوء المناقشات التى دارت بينى وبين الآخرين حول هذا الموضوع . . حصلت على بعض المعلومات . . وأحب أن أؤكد ، هنا ، أننى لا أميل اطلاقا إلى التعميم . . وإنما فى ضوء تجاربى ، ومشاهداتى ، وهى محدودة ، أسجل ما أمكننى الحصول عليه من بيانات ومعلومات فى هذا المجال .

إن الشباب فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، من الجنسين ، يعيش ، كما يبدو ، فى مناخ اجتماعى منطلق بالنسبة للعلاقات الجنسية بكل صورها . . ، وجدت ذلك فى الشارع . . وفى الفنادق . . وفى المطعم . . وفى المقهى . . وفى الملهى . . وفى العراء . . وفى عربات القطار . . وفى محيط الأسر العادية . . ، وجدت ذلك فى مدينة « بلجراد » . . ، وفى مدينة « نيش » (نحو ١٠٠٠٠٠ من السكان) . . وفى مدينة « كروشيفاتس » (نحو ٢٨٠٠٠ من السكان) . . وفى مدينة « لوبيانا » (نحو ١٧٠٠٠٠ من السكان) ، وفى مدينة « زجرب » (نحو ٦٠٠٠٠٠ من السكان) . وحتى كبار السن ، خصوصاً من الرجال ، وجدتهم يتمتعون بصحبة الصغيرات . ولا على المتزوج حرج إذا داعب أو غازل البنات والسيدات العاديات ، ولا على المتزوجات حرج إذا فعلن ذلك مع الرجال والشبان العاديين . . وتبتسم السيدات الشابات لكل رجل يقابلهن . . وابتسامات هؤلاء السيدات الشابات ، فى معظم الأحيان ، ابتسامات حانية داعية . . وقد تدعوك سيدة ، لم تكد أن تعرفها أو تتعارف عليها ، إلى شرب فنجاناً من القهوة التركية ، مثلا ، من صنع يديها . . ، ويعنى هذا ، تقليداً ، جـــواز الدعوة الصريحة إلى تأكيد الصداقة وتطورها . .

وليذهب من يشاء إلى بلجراد ، وليشاهد ما شاء له من العلاقات بين الجنسين . . فى شوارعها . . وفى فندق سلافيا . . وفى فندق براج . وسيجد حتما الشابات الصغيرات جالسات .. منتظرات . . وهن فى انتظارهن يجدهن مبتسمات . . داعيات مجيبات . . وسيجد مثلهن حتما فى فندق « بارك » فى نيش . . وفى فندق « أوربا » بمدينة كروشيفاتس . . وفى فندق « سلون » ومطعم « أيمونا » فى مدينة لوبيانا . . وفى فندق « انترناشونال » فى مدينة زجرب .

وقد يرى كما رأيت ، مثلا ، شابا يجلس فى مطعم من المطاعم . . وأمامه من أعضاء الجنس الآخر كثيرات . . فيطلب قلما من إحداهن . . فتعطيه . . ثم ما تلبث أن تدعوه إلى الجلوس معها . . وبعد قليل تجدهما ينطلقان إلى حالهما . . وفى دور السينما . . قبل أن تطفأ الأنوار ، وبعد ذلك . . سيجد حتما . . صورا عديدة من الصور الجنسية الخفيفة وغير الخفيفة . . ، وإذا كان موضوع الفيلم يدور حول الحب فإن محاكاة بطلى الفيلم سـيجدها المشاهد ، بالضرورة ، تمارس بين الكثير ، من الجنسين ، فى قاعة السينما .

وكل ما يراه الملاحظ سواء فى الشارع أو فى الفندق أو فى المقهى أو فى المطعم أو فى دار السينما . . من علاقات بين رجال وشبان عاديين وبين نساء وشابات عاديات . . أما بنات الهوى . . فهن موضوع آخر . . انهن وراء كل أجنبى . . ووراء كل غريب عن المدينة التى يجبن شوارعها أو يعشن فى فنادقها . تجدهن وبصمات المهنة على وجوههن بادية لكل ذى عينين . . ، تجدهن وكأنهن يعشن فى غابة . . فإذا ما تنبهت حواس إحداهن إلى أجنبى أو إلى غريب . . انقضت على الفريسة . . بكل ما عندها من قدرة وما لديها من أسلحة . . وقد تفوز وقد لا تفوز . . ولكنها لقمة العيش . . وغير لقمة العيش من الأمور الأخرى . . تأسر ، فى الواقع ، هؤلاء التعسات . . وإن بدون منطلقات لا تعرفن السدود . .

وفى ضوء مناقشاتى مع الناس حول موضوع الحياة الجنسية فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . خرجت بنتائج تبدو ، إذا نظرنا إليها لأول وهلة ، متناقضة غاية فى التناقض ، وهى ، فى الواقع ، ليست كذلك . فأنت تجد الكثير من الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، خصوصاً النساء منهم ، يقفون موقف المعارضة أمام الواقع الاجتماعى المتعلق بهذا الموضوع فى الوقت الحاضر . . وهم يحاولون أن يعيشوا فى الماضى . . حيث كانت العلاقات

بين الجنسين محفوظة فى إطار اجتماعى معين . مقيد غير منطلق . . ، وحيث كانت عذرية العذراء أمراً مقدساً قبل الزواج . . ، وحيث كانت قداســة العرض . . والشرف الرفيع . . الخ . ومع ذلك . وأنا أقول عن يقين ، أجد الكثيرين من هؤلاء يبيحون لأبنائهم ولبناتهم أن يفعلوا ، فى هـذا المجال ، كل ما يحلو لهم . . ، ولعلهم ، إزاء الظروف الإجتماعية الحالية ، لا يملكون غير هذا . ، وأنا أعرف إحدى السيدات ، مثلا ، تعتبر من حاملات لواء المعارضة لما وصلت إليه الحالة فى الوقت الحاضر ، إن لم تكن ، فى ضوء ظروفها ، أولى حاملات هذا اللواء . هذه السيدة تسمح لابنها ، وهو فى سن السادسة والعشرين من عمره ، ولم يتزوج حتى الآن ، بلقاء صديقاته فى حجرة النوم . . ، ولا يسعها أن تفعل شيئاً سوى أن تثرثر . فتنعى ضياع الأخلاق . وضعف الشعور بالمسئولية الإجتماعية فى هذا الزمان الأغبر . .

أما الفريق الآخر فأعضاؤه ، كما لا يخفى على القارىء لا يجـدون شيئاً غير طبيعى فيما يحدث . ويبدو اللمعان فى وجوههم عندما يناقشون هذا الموضوع ، كما يبدو البريق فى عيونهم كذلك . وتبدو الحماسة الطاغيـة فى حديثهم وهم يؤكدون وجهة نظرهم . وبعضهم ، وليس كلهم من غير المتزوجين ، فى ضوء خبرتى ، يمارسون كل العلاقات .

ولنستمع الآن لرأى الأستاذ « فود يتلتشى فالدمير » عن ظاهرة العملية الجنسية المثلية . . ، إنه يقر بوجودها ، كما سبق أن أوضحنا ذلك ، فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . ، بكل صورها ، بين الرجال . . وبين النساء على السواء . . ، وهو يرى أن وجودها يرجع إلى عوامل بيولوجية وعوامل اجتماعية . قال ذلك ، أولا ، على سبيل الإجمال . . ، ثم حاول التفصيل بعد ذلك . ، ويرى أن العوامل البيولوجية راجعة إلى اختلال فى غدد معينة فى الجسم . . الغـــدد التى تفرز ، عادة ، الهرمونات . . ، أما العوامل

الإجتماعية فرجعها فى رأيه إلى الشعور بالنقص الذى يصيب الشخص ، ذكراً كان أو انثى ، فى ضوء تجاربه الإجتماعية مع الجنس الآخر .. وهو يلاحظ أن معظم الرجال المصابين بداء الظاهرة من الذين يعملون أعمال النساء . . كالطباخين مثلا ، وهو يخص الفنانين والفنانات ، ومن فى حكمهم باحتكار الظاهرة فيما بينهم . . . والأستاذ فودينلتشى فالدمير يؤكد ، مع ذلك ، بأن الخط السياسى التربوى ، على المستوى النظرى ، سليم . ولكن الخط التربوى ، فى الواقع وخصوصاً ، تجاه السلوك الجنسى فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، تشوبه الشوائب . . ، فالاهتمام الجدى بالتربية الجنسية بين النشء . . فى الأسر . . وفى المدارس . . وفى غيرها من المجالات الإجتماعية غير موجود . وهو أخيرا ينعى عدم مساواة القانون بين الرجال والنساء الذين يمارسون الجنسية المثلية .

ويحضرنى الآن بعض نتائج مناقشاتى عن موضوع هذه الظاهرة . . أقصد ظاهرة العملية الجنسية المثلية . . ووجودها ، مثلا ، فى مجتمع كالمجتمع الدانيماركى . . وفى غيره من مجتمعات الدول الاسكندنافية . . وهى كلها ، كما يعلم القارىء ، مجتمعات مفتوحة . وإننى أذكر ، هنا ، ماقاله لى أحد المتحذلقين من الأدعياء ، وهو شخص آخر غير الذى حاول أن أن يعلل وجود هذه الظاهرة فى المجتمع المحلى المقفول . . المجتمع السيوى ، كان هذا المتحذلق الدعى لايرى عجباً ولا غرابة فى ذلك . أى فى وجود الظاهرة فى المجتمعات المفتوحة المشار إليها . . . وذلك لأن جسم الشاب الذكر ، فى رأيه ، من حيث جماله وتنسيق خطوطه ، فى هذه المجتمعات ، يشابه جسم الشابة الأنثى . وهو يقصد ، طبعاً ، أن جسم الشاب الذكر يثير الشهوة الجنسية ، عند الرجال ، تماما ، أو ربما يكون أكثر إثارة لهذه الشهوة ، كما يثيرها جسم الشابة الأنثى عندهم . . ومن ثم فلا عجب ولا غرابة إذا ماوجدت هذة الظاهرة فى هذه المجتمعات .

ماذا يرى القارىء يا ترى فى منطق هذا الرجل ؟ .. وماذا يرى ، أيضاً ، فى منطق الرجل الآخر .. أقصد الرجل الذى تجاسر وحاول أن يفسر ظاهرة العملية الجنسية المثلية فى المجتمع السيوى ؟ . . ألا يرى القارىء ، كما أرى أن منطق الرجلين واحد ؟ . . وأن خط تفكيرهما ، أيضاً ، واحد ، وعلى الرغم من أن الظاهرة موجودة ، فى مجتمعين مختلفين . . أحدهما مجتمع مفتوح .. والآخر مجتمع مقفول .. فإنهما يقدمان تفسيراً واحداً كذلك وهما ، مع ذلك ، رجلان مختلفان .. فتاريخهما الشخصى مختلف ، ومستوى ثقافتهما متفاوت ، ومكانتهما الاجتماعية متباينة . وهل زاد أحدهما ، أو كلاهما ، على ما فسر به أحدهم « البئر الارتوازى » بقوله لأننى شربت من النهر فارتويت . ، وشرب أخى من البئر « فارتوى زيى » ؟ ، أو كما فسر آخر « الانفلونزا » بقوله إن أصل المفهوم كان « أنف العنزة » . ، فأنف العنزة يبدو مصاباً دائماً بالزكام . ، والعنزة تعطس فى معظم الأحيان ؟ !!

وإننى أذكر ، أيضاً ، ما قاله لى الدكتور « ستروب » الطبيب النفسى الدانماركى ومدير أحد المعاهد الإصلاحية المذنبين الشواذ فى مدينة « كوبنهاجن » ، فى هذا الصدد . قال — وهذا ما قاله لى فى أول الأمر : « أنه لا يرى شيئاً غير طبيعى فى وجود ظاهرة العملية الجنسية المثلية بين الذكور الدانماركيين . لأن الشاب الدانماركى الذكر الذى يقبل أن يستغله ذكر آخر جنسياً يأخذ الثمن الذى يدفعه ، عادة ، الآخر . ، ثم بعد ذلك يذهب مع صديقته لقضاء الأمسية وينفقه . ، أى ينفق الثمن الذى أخذه نظير خدماته ، عليه وعليها . أى أن الاتصال الجنسى المثلى الذى حدث ، بين الأول وبين الآخر ، لا ضرر منه . ، لأن الشاب الأول ما زال رجلا يمارس رجولته بصورة أو بأخرى . » .

وعندما سألته « حتى لو تكرر هذا الاتصال ؟ »

أجاب فى ثقة ، حتى لو تكرر . .

ثم سألته مرة أخرى ، وماذا عن الشخص الآخر ؟ أقصد الذكر الآخر . . إننى أعتقد أن الحرية الجنسية يكفلها المجتمع الدانيماركى للأعضاء من الجنسين . ، وأن الأطفال غير الشرعيين يعترف المجتمع بهم . . وهو . . أى المجتمع الدانيماركى . . يحمى أيضاً الأمهات غير المتزوجات . ، فلماذا يلجأ هذا الشخص الآخر إلى الأول ، وهو من نوعه ، ولا يلجأ إلى أخرى من النوع الآخر ؟

وقد أجاب الدكتور « ستروب » الطبيب النفسى على هذا السؤال بقوله إن المجتمع الدانيماركى المعاصر قد حدد دور كل من الرجل والمرأة فيه . . وفصل كل دور . . وأصبح دور كل منهما — الرجل والمرأة — واضحاً . . بل أصبح دور المرأة ، فى هذا المجتمع ، أكثر تبلوراً وأكثر تسلطاً . . فالمرأة الدانيماركية من حقها أن تقبل من الرجال من تشاء وأن ترفض من تشاء . . ، وأن تقارن بينهم . . وأن تفاضل . . ، أى أن من حقها أن تختار من تشاء من الرجال وأن تدع من تشاء . والرجل الدانيماركى ، من حقه ، أيضاً أن يفعل ذلك . ولكن قد يكون مجال الاختيار أمامه ، إزاء ظروف المجتمع الحالية ، ضيقاً . . . إلى درجة أنه لا يستطيع ، فى بعض الأحيان ، أن يجد ، فى هذا المجال ، الفرصة للاختيار . أو حتى الفرصة لأن يختار .

ومن الناس من يقول إن ظاهرة العملية الجنسية المثلية فى المجتمعات المفتوحة ترجع إلى عوامل أخرى غير ما سبق أن قيل . أو بالإضافة إلى ما سبق أن قيل . ومنها أن الرجال والنساء فى هذه المجتمعات إزاء الحريات الواسعة فى هذا المجال ، فضلا عن التجارب الاجتماعية التى يحيونها ، يرغبون فى التغيير ، ومن ثم فهم ينشدون اللذة الجنسية . وغيرها من اللذات . . ، أنى كانت . . من مأتاها الطبيعى وغير الطبيعى على حد سواء .

ولعل القارىء أن يعرف عن هذا الموضوع أكثر مما أعرف . ومهما يكن فالكلام يجب أن لا يلقى على عواهنه . وأن خير وسيلة الوصول إلى الحقائق عن أية ظاهرة هو الدراسة العلمية لهذه الظاهرة ، . فهى تشفى كل غليل . وهى -- فى ضوء نتائجها - تيسر مواجهة الواقع حتى يسير الركب إلى الهدف المنشود .

وبالإضافة إلى كل المعلومات السابقة ، الخاصة بالمجتمع اليوغسلافى المعاصر ، لابد أن أذكر ظاهرة أخرى ، ربما وقفت فى سبيل عرض موضوع الحياة الجنسية فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ،كما عرضته فى هذا المقال ، وربما تثير . .. أى هذه الظاهرة المناقشة. وتتلخص هذه الظاهرة فى أن العنصر النسائى فى الكثير من المجالات الاجتماعية ، المتعلقة بشغل أوقات الفراغ ، يبدو مفتقداً . أعنى أن عدد النساء ، مثلا ، فى المقاهى قليل. وفى المطاعم كذلك . ومع ذلك فالنساء يعملن الآن ، فى كل المجالات ، جنباً إلى جنب ، مع الرجال ، فالضرورة الاجتماعية تحتم ذلك فى الوقت الحاضر . والعمل لكلا النوعين ، الرجال والنساء ، متوفر . وهو حق للرجال والنساء. وقد لاحظت ، أيضاً ، إننى لم أر زوجة سيد من الســـادة اليوغسلافيين المتزوجين الذين قابلتهم سواء فى مكان أعمالهم أو على مائدة الغـذاء أو على مائدة العشـاء . ولم يدعنى أحد من هؤلاء ، وهم كثيرون ، إلى منزله مرة واحدة ، بخلاف ما يحدث ، عادة ، فى المجتمع الإنجليزى ، مثلا ، أو فى المجتمع الأميريكى .

وربما كنت قد جاوزت الصواب عندما قلت إن المجتمع اليوغسلافى المعاصر مجتمعاً مفتوحاً . لقد كان هذا المجتمع ، منذ عشرين عاماً ، أو نحو ذلك ، مجتمعاً يتسم بسمات المجتمع المقفول . ، لم تـكن المرأة . قبل ذلك ، حقوق سياسية أو مدنية مساوية لحقوق الرجل ، ، وقد عاشت ، كما عاش

الرجال اليوغسلافيون ، نحو خمسة قرون تحت نير الاستعمار التركى . . ، وكل مصرى عربى .. بل كل عضو فى الوطن العربى الكبير يعرف ، بالضرورة ، ما أعنى وما أقصد .. وفضلا عن ذلك . وأنا هنا أسجل معلومات رسمية جمعتها من تقارير « المعهد الجنائى » ببلجراد ، يجب أن نذكر آثار الحرب العالمية الثانية والاحتلال النازى للمجتمع اليوغسلافى فى أثناء ذلك .. ويكفى فى هذا المجال أن نعدد بعض الخسائر المادية والخسائر فى الأرواح التى عاناها المجتمع اليوغسلافى فى هذه الفترة العصيبة .. لقد وجد المجتمع نفسه بعد الحرب مباشرة وفى رعايته نحو .. ٢٨٠ طفل مات آباؤهم فى الحرب ، ومن هؤلاء نحو . . . ٨٨ طفل ماتت امهاتهم أيضا . وقد بلغ عدد الأطفال الهمل والذين عانوا ظروفا قاسية نحو . . . . ٦٦٠ طفل . وقد بلغ عدد المجندين الذين أصيبوا ، بسبب الحرب ، نحـــو . . . . . ١١ شخص .. كانوا يعولون نحو . . . . . ٢٠ من الأشخاص . . ، وفى خلال الحرب احرقت نحو . . . . . ٤٠ بيت من بيوت القرى . . ، وقد أصيبت المدن ، معظم المدن ، بالقنابل المدمرة .. ومنها ، مثل مدينة زادار ومدينة تيتوجراد ، قد أكل تدميرها وزالت من الوجود . . وفضلا عن ذلك فقد عانى مئات الألوف من البالغين والشبان والشابات ظلمات السجون أو النفى أو التعذيب أو القتل فى خلال هذه الحروب . أى أن يوغسلافيا قد خسرت فى هذه الحرب نحو . . . . . ١٧٠ شخص . . ويعنى كل ذلك أن يوغسلافيا ، فى ضوء هذه الخسائر الفادحة ، قد واجهت بعد الحرب مباشرة عبء اكبيرا ، وأن مجتمعها ، قد حمل مشاكل اجتماعية ضخمة .. ولعل مواجهة هذا العبء وهذه المشاكل الاجتماعية ، فى ضوء التغييرات الاجتماعية الجذرية التى أوجدها قادة يوغسلافيا الحاليون ، عن وعى ، قد اتسمت بسرعة التنفيذ ..، ومايصاحب هذه السرعة عادة من ظواهر التغير الاجتماعى السريع والتفكك الاجتماعى فضلا عن التخلف الثقافى . .

والظاهرة الأخيرة .. أقصد ظاهرة التخلف الثقافى .. تعنى ، بالضرورة ، أن درجة التنمية الاجتماعية فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ليست متعادلة .. ، وهذا هو الواقع ، فاذا اعتبرنا أن جمهورية سلوفينيا ، مثلا ، متقدمة .. فجمهورية كجمهورية بوسنيا مازالت متخلفة .. ، أى أن الصراع بين القديم والجديد ، فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، على مستوى الجمهوريات التى تكونه ، قائم على قدم وساق ... ، وفى الجمهورية الواحدة نجد هذا الصراع ، الصراع بين القديم والجديد ، قائما كذلك .. ، ويكفى ، للاهتداء إلى هـــذا الصراع ، أن نلاحظ مدينة كمدينة بلجراد .. فالهجرة الداخليـــة فيها على أشدها .. وآثار هذه الهجرة واضحة كل الوضوح ..

وأقول مرة ثانية لعلنى أن جاوزت الصواب عندما قلت إن المجتمع اليوغسلافى المعاصر مجتمعا مفتوحا .. لان المجتمع اليوغسلافى ، بوجه عام ، كان ، منذ عشرين سنة أو نحو ذلك ، مجتمعاً مقفولا .. ، وكان ، بالاضافة إلى ذلك ، محملا بالاعباء الاجتماعية العديدة ، وبالمشاكل الاجتماعية الضخمة . ويبدو أن خطأى هذا كان خطأ جسيما .. ، ويغفر لى أن حسن النية كان يملأ على كيانى .. ، ولعلنى أثوب إلى رشدى الآن .. فالرجوع إلى الحق فضيلة ... ، وأعود وأقول مجتهدا ، أنه يبدو لى أن المجتمع اليوغسلافى المعاصر ، بوجه عام ، كان ، منذ فترة وجيزة من عمره ، مجتمعا مقفولا .. ، واصبح الآن مجتمعا يتفتح ..

جرائم الاعتداء على الملكية في المجتمع اليوغسلافي المعاصر

في عام واحد .. أي خلال عام ١٩٦١ ارتكب ٩٠٠٠٠ من الاشخاص في المجتمع اليوغسلافي المعاصر ، جرائم متعددة على مستوى الجنح والجنايات .. هذا ما أبلغني اياه السادة « قاسم هودجبتش » و « فيداك بوبوفيتش » و « دراجوتين جازابي » .. ويعمل الأول مديرا لمصلحة الأمن العام ، ويعمل الثاني مديرا عاما لمصلحة السجون ، أما الثالث فهو مفتش من مفتشي المباحث .. وكنا نحن الأربعة ، ومعنا خامس يقوم بمهمة الترجمة .. في وزارة الداخلية في مدينة بلجراد .

ولما سألت عن عدد الأشخاص الآخرين الذين ارتكبوا جرائم ، على مستوى المخالفات ، في خلال نفس العام .. لم أجد عند مضيفي ما أطلبه .. وهذا ما توقعته ... ، فالجرائم ، على مستوى المخالفات ، تبدو غير ذات أهمية عند رجال الشرطة في الكثير من المجتمعات .. حتى مجتمعنا .. وهذه الجرائم تبدو غير ذات أهمية عند الكثير من الناس .. ، غير رجال الشرطة ، سواء كانوا من المتخصصين في ميدان علم الأجرام ، أو كانوا من غير المتخصصين . أي أن هذا الاتجاه نحو الجرائم على مستوى المخالفات ، اتجاه شائع . وهو يعتبر ، في رأيي ، من قبيل الأخطاء الخطيرة الشائعة ، فالجرائم على مستوى المخالفات ، عندي أخطر ، اجتماعيا ، من الجرائم الأخرى . ولينظر القارىء مليا .. وليمعن النظر في الاضرار الاجتماعية الخطيرة الناتجة ، مثلا ، من جرائم مخالفات رمي القاذورات في الشارع ، أو التبول في الترعة ، أو بعض مخالفات المرور .. وغيرها .

وكانت نسبة عدد الأحداث الذين ارتكبوا جرائم ، على مستوى الجنح والجنايات ، نحو ١٠ ٪ وسن الحداثة في المجتمع اليوغسلافي تبدأ

فى سن الرابعة عشرة وتنتهى فى سن الثامنة عشرة . ويلاحظ القارىء أن سن الحداثة فى المجتمع المصرى العربى تبدأ فى سن السابعة . . وتنتهى بنص قانون العقوبات المصرى العربى فى سن الخامسة عشرة ، وبنص القانون الخاص بالأحداث المتشردين تنتهى فى سن الثامنة عشرة . ولايوجد ، فى الواقع ، اختلاف كبير بين اهتمام كل من المجتمعين ، المصرى العربى واليوغسلافى ، بالأحداث الجانحين . . لأن المؤسسات الاجتماعية المختصة على اختلافها ، تهتم بالأحداث الجانحين ، فى المجتمع اليوغسلافى ، كلما دعت الضرورة ، قبل سن الرابعة عشرة .

أما نسبة عدد الشبان الجانحين والشابات الجانحات ، من سن الثامنة عشرة إلى سن الواحدة والعشرين ، فى المجتمع اليوغسلافى ، فقد كانت ، فى خلال عام ١٩٦١ ، ايضا ، نحو ١٠ ٪ . ويلاحظ القارىء أن القانون المصرى العربى لايعترف بكيان الأشخاص فى هذا العمر ، أى أنه لايعتبرهم شبانا وشابات . . فى مسيس الحاجة إلى الرعاية والحماية والمعاملة الخاصة المتخصصة . . بل هو ، أى القانون المصرى العربى ، يعتبرهم بالغين . . ويعامل الواحد منهم إذا خالف القانون ، على أى مستوى ، مستوى المخالفات والجنح والجنايات ، معاملة البالغ . . ولا يأخذ فى اعتباره أنهم لايزالون غير ناضجين من النواحى التكوينية والعقلية والعاطفية . .

ومن حيث أنماط الجرائم التى ارتكبت ، فى المجتمع اليوغسلافى ، فى خلال عام ١٩٦١ ، فقد اتضح أن نحو ٦٠ ٪ منها ضد الملكية . . وكان من الذين ارتكبوا هذه الجرائم نحو ٢٠ ٪ من العائدين . وكانت نسبة الجرائم ضد الاقتصاد الاهلى تبلغ نحو ١٥ ٪ والجرائم الأخيرة ، فى رأيى ، جرائم ضد الأموال ، مثلها مثل جرائم الاعتداء على الملكية . أما الجرائم التى ارتكبت ضد الاشخاص ، فقد بلغت نسبتها المئوية نحو ١٠ ٪ . .

وقد ارتكب فى هذا العام ، أى فى عام ١٩٦١ ، ٩٣٠ جناية قتل . على اختلاف أنماطها وصورها . وقد لاحظت أنه فى نفس العام قد ارتكبت ١١٥٥٣ حادثة من حوادث المرور . . قتل فيها ١٢٠٤ من الأشخاص . والعدد الأخير أكبر ، كما يلاحظ القارىء . من عدد جنايات القتل . . أى أن المجتمع اليوغسلافى قد خسر ، فى عام ١٩٦١ ، أرواحا أكثر فى حوادث المرور منها فى جرائم القتـــل على اختلاف أنماطها وصورها . والملاحظة الأخيرة لا يراها كثيرون فى معظم المجتمعات التى يقتل أبناؤها فى حوادث المرور أكثر مما يقتلون فى جرائم القتل . ذلك لأن جريمة القتل تهز ، عند حدوثها ، قلوب أعضاء المجتمع . وتملأ الصحف أعمدتها ، عادة بتفاصيلها . . وبمتابعتها . . أى أن جريمة القتل تبدو أكثر وضوحا . . أو كما يقال تبدو لامعة اجتماعيا . .

وفى عام واحد ، أيضاً ، أى فى خلال عام ١٩٦٢ ارتكب ١٤٠٠٠ من الأشخاص ، فى مدينة بلجراد ، جرائم متعددة على مستوى الجنح والجنايات . وكانت نسبة جرائم الاعتداء على الملكية تبلغ نحو ٦٢ ٪ . . ، وكان منها ١٠٠٠ حالة نشل . . أى بنسبة مئوية تبلغ نحو ١١٫٥ ٪ .

ونسبة الجرائم ضد الملكية ، على مستوى المجتمع ، أو حتى على مستوى مدينة بلجراد ، نسبة كبيرة مافى ذلك شك . . . وقد قيل لى أن نحو ٩٠ ٪ من جرائم الأحداث هى جرائم من هذا القبيل . . ويلاحظ أن هذه النسبة الكبيرة من هذا النمط من الجرائم ضد الملكية ، توجد فى مجتمع قد ألغى الملكية . . . أقصد الملكية العامة لا الملكية الخاصة . . ملكية أدوات الإنتاج لا ملكية السلع الاستهلاكية العادية . وقد ناقشت هذا الموضوع مع رجال وزارة الداخلية اليوغسلافية . . وكان ملخص كلامهم هو أن الأغلبية الساحقة من هذه الجرائم عبارة عن جرائم تافهة ، وإن عوامل

ارتكابها لاترجع ، بالضرورة ، إلى إنخفاض مستوى معيشة الذين ارتكبوها ولا إلى عبادتهم . . أى الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الجرائم ، للمال ، أو مايمثل المال من سلع وأدوات . . إنما قد ترجع عوامل ارتكابها ، قالوا ذلك على سبيل المثال ، إلى أن مرتكبي هذه الجرائم أشخاص قد هاجروا حديثاً إلى المدن . . ومنها مدينة بلجراد . بقصد الحياة فيها ولم تسعفهم الظروف إلى الحصول على عمل مستمر فى الوقت المناسب فاضطروا إلى ارتكاب هذه الجرائم . . وكان من البراهين التى قدموها على صحة هذا التفسير أن المجتمع اليوغسلافى لم ينكب بظاهرة وجود عصابات السطو ، المسلحة أو غير المسلحة ، ولا بوجود اللصوص المحترفين كما هو موجود فعلا فى مجتمع كالمجتمع الأميريكى .. إن المسألة ، فى رأيهم، مسأله تعطل مؤقت عن العمل الذى هو حق توفره الدولة لجميع أعضاء المجتمع اليوغسلافى المعاصر رجاله ونسائه ، على السواء .

والملاحظ ،كما قال رجال وزارة الداخلية اليوغسلافية ، أن معظم جرائم الاعتداء على الملكية يكون ، عادة ، فى المجتمعات الحضرية .. أى فى المدن . وإن معظم جرائم الاعتداء على الأشخاص يكون ، عادة .فى المجتمعات الريفية. وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى مجتمعنا المصرى العربى . وإذا قارنا المجتمعات الحضريه فى مجتمع كمجتمعنا بالمجتمعات الحضرية فى مجتمع كالمجتمع الأميريكى . . نجد أن نسبة الجرائم ضد الملكية أكبر فى المجتمعات الحضرية الأخيرة منها فى المجتمعات الحضرية الأولى . ذلك لأن المجتمعات الحضرية الأولى والمجتمعات الحضرية الأخيرة على الرغم من أنها مجتمعات حضرية فإن درجة التحضر فى المجتمعين ، المصرى العربى والأميريكى ، متباينة . والمقصود بالتحضر هنا أساليب الحياة التى يمارسها ساكنو الحضر فى كل من المجتمعين . ونلاحظ كذلك ، أن درجات التحضر فى المجتمعات المختلفة

تكون ، بالضرورة مختلفة . وذلك في ضوء تواريخ هذه المجتمعات ودرجات مستويات اقتصادياتها ومستويات ثقافاتها .

ولكن لماذا يكون معظم جرائم الاعتداء على الأشخاص في المجتمعات الريفية ؟ ولماذا يكون معظم جرائم الاعتداء على الأموال (الملكية) في المجتمعات الحضرية ؟ . إن الإجابة على أحد هذين السؤالين ستتضمن ، بالضرورة ، الإجابة على السؤال الثانى . . والإجابة على أى من السؤالين يجب أن يكون مجالها نوع العلاقات الإجتماعية الأشخاص الذين يعيشون في المجتمعات الريفية أو الأشخاص الذين يعيشون في المجتمعات الحضرية . إن هذه العلاقات الإجتماعية في الريف تكون ، عادة، علاقات الوجه للوجه أى علاقات شخصية . وهى في المدينة على عكس ذلك . أى هى علاقات اجتماعية ، في معظم الأحيان ، غير شخصية . ويعنى هذا أن قيمة الشخص ، قيمته الإجتماعية ، في الريف كبيرة جدا . فهو أى الشخص . . إذ يقوم بأدواره الإجتماعية في استطاعته أن يضر وأن ينفع . أى أنه يستطيع أن يقف في سبيل تحقيق رغبات من حوله أو ييسرها . أما في المجتمعات الحضرية ، في المدن ، فنجد أن قيمة الشخص الإجتماعية ، بسبب طبيعة ظروف الحياة فيها ، ليست كبيرة لأنه في هذه المجتمعات تستبدل بقيمة الشخص ، كشخص ، قيمة أخرى تمثل في المال بكل صوره . . نقود . . سلع . . الخ . ذلك لأن العلاقات الاجتماعية في المدينة علاقات في الغالب ، كما سبق أن أوضحنا . غير شخصية . . ومعظمها علاقات ثانوية . والمال في المدينة ، بكل صوره ، يقوم في الواقع بتحقيق رغبات الأشخاص الذين يعيشون في هذا المجتمع الحضرى . وقلة المال تقف في الواقع ، في معظم الأحوال ، حجر عثرة في سبيل تحقيق هذه الرغبات . والمال في المدينة

بكل صوره . كما نجد فى مجتمع كالمجتمع الأمريكى ، مثلا ، علامة النجاح فى الحياة . فالشخص فى هذا المجتمع يعتبر ناجحا إذا كان عنده المال . . وهو يعتبر فاشلا إذا لم يكن عنده المال . . مهما كانت أدواره الإجتماعية الأخرى التى يقوم بها . فأستاذ الجامعة فى إحدى الجامعات الأمريكية ، مثلا ، يعتبر شخصا فاشلا إذا قورن برجل الأعمال الأمريكى . . أو حتى إذا قورن بسائق اللورى الذى يحصل ، عادة . على دخل مالى أكبر من الدخل المالى الذى يحصل عليه أستاذ الجامعة الأمريكية . . والنجاح فى الحياة هدف كبير يسعى الأشخاص العاديون إلى تحقيقه . . سواء كانوا يعيشون فى المجتمع الحضرى أو يعيشون ، فى المجتمع الريفى . . والحصول على هذا الهدف فى المجتمع الأخير . . الريفى . . هو الحصول لا على المال بقدر الحصول على كسب تأييد الأشخاص . فأعضاء الأسرة كبيرة الحجم فى المجتمع الريفى أقرب إلى تحقيق النجاح فى الحياة من الأشخاص الذين ينتمون إلى أسر صغيرة . وهم من باب أولى ، أقرب من الأشخاص غير المنتمين إلى أسر .

وإذا لاحظنا المجتمع اليوغسلافى المعاصر فإننا نجد أن التقدم الاقتصادى فيه . بوجه عام ، والتقدم الصناعى ، بوجه خاص ، قد انتجا بعض الأشياء . ومن هذه الأشياء ظهور المدن . . والأقاليم . . الصناعية الجديدة . . واتساع المدن القديمة اتساعا كبيرا . . أى أن الرقعة الحضرية فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر قد زادت . وتبع ذلك ، بالضرورة ، تدفق المهاجرين . من الداخل ، إلى كل المناطق النامية فى المجتمع بشكل لا يتصوره العقل . وكانت نتيجة هذه الهجرة الداخلية أن شكل البناء السكانى للمجتمع قد تغير بدوره تغييرا جذرياً . واصبح عدد السكان الريفيين يقل باستمرار ، بينما عدد السكان الذين يسكنون الحضر أصبح يزيد باستمرار . وكانت نسبة عدد السكان الريفيين فى عام ١٩٢٩ تبلغ نحو ٧٠٫٥ ٪ ، وأصبحت

فى عام ١٩٤٨ تبلغ نحو ٦٧٫٣ ٪ ، وفى عام ١٩٥٣ نحو ٦٠٫٩ ٪ . أما فى عام ١٩٦١ فقد أصبحت هذه النسبة تبلغ نحو ٥٠٫١ ٪ .

ولعل فى ضوء هذه الحقائق عن المجتمع اليوغسلافى المعاصر . وماسبق أن أوضحناه . أن يستخلص القارىء بعض النتائج فيما يتعلق بالنسبة المئوية الكبيرة لجرائم الاعتداء على الملكية فى المجتمع الذى ألغى الملكية . .

أصحاب الملايين فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر

فى عام ١٩٦٣ بلغ عدد السيارات الخاصة التى يملكها مواطنون يوغسلافيون نحو ٩٠٠٠٠ سيارة . وإذا علمنا أن عدد سكان يوغسلافيا قد بلغ فى هذا العام نحو ١٨ مليوناً ، وأن متوسط عدد أعضاء الأسرة فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر يبلغ نحو أربعة أعضاء ، كان عدد الأسر فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر نحو أربعة ملايين ونصف المليون أسرة فى عام ١٩٦٣ . أى أن نصيب الأسر اليوغسلافية من السيارات الخاصة يبلغ نحو سيارة خاصة واحدة لكل خمسين أسرة أى، أن سيارة خاصة واحدة يملكها شخص واحد من كل مائتين من الأشخاص فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر. ويلاحظ أن فى مدينة لوبيانا عاصمة جمهورية سلوفينيا، وهى أكثر جمهوريات يوغسلافيا تقدماً ، نجد أن سيارة خاصة واحدة يملكها شخص واحد من كل تسعة من الأشخاص .

وإذا عرفنا أن ثمن السيارة الخاصة الواحدة فى يوغسلافيا لا يقل عن مليون دينار[1] ، فإننا نجد أن عدد أصحاب الملايين فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر لا يقل عن نحو ٩٠٠٠٠ من الأشخاص. وهو يبلغ فى عاصمة جمهورية سلوفينيا ، وحدها ، نحو ١٩٠٠٠ من الأشخاص ، مع العلم بأن عدد سكان هذه العاصمة يبلغ نحو ١٧٠٠٠٠ من السكان .

ولعل فى ضوء الظروف الاقتصادية التى يمر بها المجتمع اليوغسلافى المعاصر أن يزيد عدد السيارات التى يملكها مواطنون يوغسلافيون . . أى

---

(١) الدينار اليوغسلافى الواحد يساوى نحو ٦ر. من المليم المصرى العربى .

أنه من المتوقع أن يزيد عدد أصحاب الملايين اليوغسلافيين عام بعد عام!!

والعمل للقادرين من أعضاء المجتمع اليوغسلافى المعاصر، من الجنسين، متوفر. ومع ذلك فنظرة واحدة إلى الأجور والمرتبات قد تيسر لنا الحكم على مستواها. فأصغر مرتب أو أجر لايزيد على نحو ١٥٠٠٠ دينار شهريا، وأكبر مرتب أو أجر لايزيد على ١٢٠٠٠٠ دينار شهرياً. ويلاحظ أن الدخل القومى للشخص الواحد فى المجتمع اليوغسلافى قد بلغ فى عام ١٩٣٩ نحو ٦٣٢٠٣ دينارات فى العام، أى نحو ٥٢٦٧ ديناراً فى الشهر الواحد. وأصبح هذا الدخل، بسبب الظروف التى واجهها المجتمع اليوغسلافى فى أثناء الحرب، فى عام ١٩٤٧ أقل من ذلك، أى نحو ٦٢٠٢٧ ديناراً فى العام، أى نحو ٥١٦٩ ديناراً فى الشهر الواحد. وفى عام ١٩٥٩ نجد أن الدخل القومى للشخص الواحد أصبح نحو ١١٩٣٥٤ ديناراً سنوياً، أى أن هذا الدخل كاد أن يتضاعف ويتوقع أن يزيد الدخل القومى فى عام ١٩٦٥ نحو ثلاثة أضعاف ما كان عليه فى عام ١٩٢٩. ومع ذلك فقد نجد أن دخل الشخص الواحد، فى بعض الأحيان، قد لايعدو مبلغ ٣٦٠٠٠ ديناراً سنوياً، أى نحو ٣٠٠٠ ديناراً فى الشهر الواحد. وعلى القارىء أن يأخذ فى الاعتبار الظروف المناخية فى المجتمع اليوغسلافى. فالشخص فى الجمهورية العربية المتحدة، مثلا، يستطيع أن يعيش حياة طيبة إذا استهلك من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ من السعرات الحرارية. الأمر الذى لا يمكن أن يفعله شخص يعيش فى المجتمع اليوغسلافى. وفضلا عن ذلك فإنه يجب أن نلاحظ، أيضا، مستوى تكلفة المعيشة فى المجتمع اليوغسلافى.

ونظرة نحو أسعار الحاجات الأساسية فى المجتمع اليوغسلافى تبين لنا أن سعر الكيلو من اللحم البقرى يوازى نحو ٥٨٠ ديناراً، وأن سعر الكيلو من الخبز نحو ٩٠ ديناراً، وسعر الكيلو من الزبد لايزيد على ١٢٠٠

دينار ، وثمن الطن من الفحم نحو ٤٥٠٠ دينار . والمتر المكعب من الخشب نحو ٤٦٠٠ دينار . ويتراوح ثمن الكيلو من الجبن مابين ٢٠٠ و ١٠٠٠ دينار ، وثمن الكيلو من الأرز مابين ١٥٠ و ٢٥٠ دينار وتجد ثمن الكيلو من الدجاج يتراوح مابين ٨٠٠ و ١٥٠٠ دينار . وأسعار الفواكه تبدو لعين المواطن المصرى العربى رخيصة خصوصاً اسعار التفاح والكمثرى والبرقوق فقد لايزيد ثمن الكيلو من التفاح ، مثلا ، على ١٥٠ دينار . أما أسعار الملابس فنجد ان سعر المتر من الصوف يتراوح مابين ٤٠٠٠ و ١٠٠٠٠ دينار ، وان سعر القميص المصنوع من القطن نحو ٨٠٠ دينار والسروال المصنوع من القطن مابين ٤٠٠ و ٨٠٠ دينار ، والجوارب مابين ٢٠٠ و ٥٠٠ دينار ، والحذاء ما بين ٣٠٠٠ و ٧٠٠٠ دينار .

وفى المطاعم من الدرجة الأولى يتناول الشخص طعام غذائه او عشائه ويدفع ثمنا يتراوح مابين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ دينار . ويتناول شخص آخر طعام غذائه او عشائه فى مطعم آخر ولا يدفع اكثر من ٤٠٠ دينار . وقد يكتفى شخص ثالث بتناول إحدى الوجبات الشعبية ولايدفع أكثر من مائه دينار . وثمن فنجان القهوة التركى متفاوت . يرتفع إلى ٨٠ ديناراً فى مقهى معين ولايعدو الـ ٢٠ دينار فى مقهى آخر .

والخمور كثيرة فى المجتمع اليوغسلافى . وأنواعها متعددة . فالنبيذ يتراوح ثمن اللتر منه ما بين ١٥٠ و ٤٠٠ دينار ، وثمن لتر البراندى مابين ٣٠٠ و ١٠٠٠ دينار ، ولتر الفنياك ما بين ٦٠٠ و ١٠٠٠ ديناراً . أما لتر المياه المعدنية فثمنه نحو ٤٠ دينار .

ويدفع الشخص ماقيمته ٢٥ دينار اجرا للترولى باس ، ولايزيد مايدفعه على ٣٠ ديناراً مهما بعدت المسافة . وعندما اضطررت إلى السفر بالقطار

لاحظت انني لم استلم تذكرة واحدة كما اعتقدت ذلك فى بلادى وفى غير بلادى من البلاد الأوروبية والأمريكية التى زرتها ، ولكن استلمت ثلاث تذاكر .. واحدة عن السفر نفسه ، والثانية عن درجة السفر ، أما الثالثة فعن سرعة القطار . ولكل تذكرة طبعا ، ثمن محدد .

ودور اللهو ، البرىء وغير البرىء ، متعددة فى مدينة كمدينة بلجراد . أو كمدينة نيش . أو فى مدينة زجرب ، أو فى مدينة لبيانا ، ومن وجهة نظر المواطنين اليوغسلافيين تجد أن دور السينما لها أهمية خاصة ، خصوصا فى شهر فصل الشتاء ، عند الشبان والشابات فضلا عن الأحداث . ويتراوح ثمن تذكرة السينما مابين ٨٠ و ١٥٠ ديناراً . وثمن تذكرة الدخول إلى المسرح مابين ١٠٠ و ٥٠٠ دينار ، وكذلك الباليه وقاعة الموسيقى .

وإيجار المساكن ، على الرغم من أزمة الاسكان المستحكمة ، يبدو منخفضا . فالشقة ذات الحجرة الواحدة ومنافعها لايزيد إيجارها الشهرى على ٣٠٠٠ دينار وقد يبلغ إيجار الشقة ذات الخمس الغرفات نحو ٢٠٠٠٠ دينار شهرياً . ويلاحظ أن التيار الكهربائى موجود فى كل مسكن ، فى المدينة ، وكذلك المياه الجارية ، وإن كان ثمن الاستهلاك الكهربائى واستهلاك المياه يدفعه شهرياً كل ساكن على حدة .. أى أن كل ساكن يدفع ، حسب استهلاكه الشخصى ، قيمة مايستهلكه من الكهرباء ومن المياه بالإضافه إلى ما يدفعه من قيمة الإيجار الشهرى .

* * *

ولابد من الاشارة إلى أزمة المساكن المستحكمة فى يوغسلافيا فى الوقت الحاضر وخصوصا فى الرقعة الحضرية . ويلاحظ أن العمليات الحضرية قائمة على قدم وساق فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية .

وتبع ذلك ، بالضرورة ، تغير فى التركيب السكانى لهذا المجتمع . فقد كانت يوغسلافيا قبل الحرب العالمية الثانية نموذج أصيل للبلد الزراعى ، وكان يبلغ عدد المشتغلين بالزراعة فيها نحو ٧٥ ٪ من عدد سكانها . وكان يسهم الإنتاج الزراعى بنسبة نحو ٤٩ ٪ من الإنتاج القومى ، فى حين كان الإنتاج الصناعى يسهم فقط بنسبة نحو ١٩٫٢ ٪ . وفى عام ١٩٥٨ أصبح الإنتاج الصناعى يسهم فى الإنتاج القومى بنسبة نحو ٤٣٫٩ ٪ ، فى حين أصبح الإنتاج الزراعى يسهم فى نفس العام بنسبة نحو ٢٨ ٪ فقط .

وزيادة عمليات التصنيع فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية قد انعكست فى عمليات تحول نشاط أعضاء هذا المجتمع من الاشتغال بالزراعة إلى الاشتغال بالأعمال غير الزراعية ، فضلا عن ازدياد الرقعة الحضرية فى المجتمع . ونلاحظ أن نسبة المشتغلين بالزراعة فى عام ١٩٤٨ كانت نحو ٦٧٫٢ ٪ ، وأصبحت فى عام ١٩٥٣ نحو ٦٠٫٩ ٪ ، وفى عام ١٩٥٩ نحو ٥١٫٦ ٪ . وينتظر أن تكون هذه النسبة فى عام ١٩٦٥ نحو ٤١ ٪ فقط . أى أن نسبة المشتغلين فى الأعمال غير الزراعية كانت فى عام ١٩٤٨ نحو ٣٢٫٨ ٪ وأصبحت فى عام ١٩٥٩ نحو ٤٨٫٤ ٪ ، وينتظر أن تكون هذه النسبة فى عام ١٩٦٥ نحو ٥٩ ٪ .

وليس كل المشتغلين فى الأعمال غير الزراعية يسكنون الحضر . فنجد أن ثلثهم يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها على ٢٠٠٠٠ نسمة ، وأن خمسهم يعيشون فى مدن صغيرة وفى مناطق صناعية ، وأن نصفهم تقريباً يعيشون فى القرى . ومهما يكن فسكان الحضر يزيدون . فقد كانت نسبتهم المئوية فى عام ١٩٢١ نحو ١٦٫٥ ٪ ، وأصبحت هذه النسبة فى عام ١٩٥٣ نحو ٢١٫٨ ٪ وأصبحت هذه النسبة فى عام ١٩٦٠ نحو ٢٨ ٪ ، وينتظر أن تكون هذه النسبة فى عام ١٩٦٥ نحو ٣١ ٪ ويلاحظ أن درجة عملية التحضر فى المجتمع

اليوغسلافى أصبحت أسرع مرتين ونصف المرة فى خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية منها فى خلال فترة ما قبل الحرب . ومهما يكن فإن درجة التحضر فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر مازالت فى البداية بالنسبة لدرجة التحضر فى المجتمعات الأوربية الأخرى التى مارستها فى خلال القرن الماضى . وإذا لاحظنا أن سكان الحضر فى يوغسلافيا فى عام ١٩٥٣ قد بلغت نسبتهم نحو ٢١٫٨٪ فقط ، فإننا نجد أن نسبتهم فى مجتمع المملكة المتحدة نحو ٨٠٪ ، وفى المجتمع الدانيماركى نحو ٦٧٫٣٪ ، وفى مجتمع الولايات المتحدة نحو ٦٤٪ ، وفى المجتمع البلجيكى نحو ٦٣٪ ، وفى المجتمع الفرنسى نحو ٥٦٪ ، وفى المجتمع الهولندى نحو ٥٤٫٦٪ ، وفى المجتمع النرويجى نحو ٥٠٫٥٪ ، وفى المجتمع النمسوى نحو ٤٩٫١٪ ، وفى المجتمع السويسرى نحو ٣٦٫٥٪ ، وفى المجتمع البولندى نحو ٣٥٫٨٪ ، وفى المجتمع المجرى نحو ٣٤٫٥٪ ، وفى مجتمع الجمهورية العربية المتحدة نحو ٣٠٪ ، وفى المجتمع البلغارى نحو ٢٤٫٦٪ ، وفى المجتمع الرومانى نحو ٢٣٫٤٪ وفى المجتمع التركى نحو ٢٢٪ ، والمقارنة السابقة بين هذه المجتمعات هى مقارنة على علاتها لأن مفهوم ساكن الحضر يختلف ، كما يعلم القارى ، من مجتمع إلى آخر .

وفى ضوء كل الحقائق السابقة : زيادة عمليات التصنيع ، وتحول نشاط أعضاء المجتمع من الاشتغال بالزراعة إلى الاشتغال بالأعمال غير الزراعية ، وازدياد سكان الحضر ، فضلا عن الارتفاع النسبى لدرجة التحضر فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر — نتوقع ، بالضرورة ، وجود الآثار الاجتماعية التى يواجهها المجتمع اليوغسلافى فى الوقت الحاضر . ولايخفى على القارىء أن أزمة المساكن المستحكمة القائمة فى هذا المجتمع ماهى إلا أثر من هذه الآثار .

* * *

ويرى الزائر فى يوغسلافيا ، كما يرى فى غيرها من البلاد ، وخصوصاً فى المدن ، ازدحام الناس فى الشوارع التى تكثر فيها الحوانيت ، تجدهم يروحون ويجيئون فى كل ساعه من ساعات النهار وفى معظم ساعات الليل فى هذه الشوارع يتطلعون إلى « الفاترينات » الملآى بالبضائع .. تجدهم كأفراد كما تجدهم كجماعات .. وإذا لاحظت تعبيرات وجوه هؤلاء تجد تعبيرات اللهفة على المعروضات كما تجد تعبيرات الآمال والأحلام .. وهم إذ يفعلون ذلك فهم فى الغالب يحاولون قتل الوقت بأسلوب أو بآخر .. وربما كان بعضهم يحاول أن يستذكر أسعار البضائع .. وربما وجدت بعض هؤلاء يكتب بعض الأسعار فى مذكرة يمسكها فى يده .. ومن الناس من يذهبون إلى الحوانيت ليشتروا ما يحلو لهم من بضائع .. وهؤلاء كثيرون .. تجدهم يملأون الحوانيت .. يدخلونها وجيوبهم معمرة وأيديهم لا تحمل شيئاً ، ويخرجون منها وقد فرغت جيوبهم وحملت أيديهم ما رغبوه من البضائع التى كانوا يحلمون فى الحصول عليها فى يوم من الأيام أو التى يعتبرونها حاجات أساسية لاغنى عنها .

ومن الناس من يشترى حاجاتهم الأساسية وغير الأساسية ، ولايدفعون ثمنها مرة واحدة .. بل قد يدفع أحدهم جزءاً صغيراً من الثمن .. ويدفع باقى الثمن على أقساط .. وحتى أصحاب الملايين يفعلون ذلك .. أقصد أصحاب السيارات.. لايدفعون ثمن السيارة دفعة واحدة..أى لايدفعون المليون الدينار مرة واحدة .. ولكن على أقساط .. قد يستغرق دفعها سنوات . وما على الناس ، كل الناس القادرين ، فى المجتمع

اليوغسلافى إلا أن يعملوا إذا أرادوا أن يعيشوا ويشبعوا حاجاتهم الأساسية وحتى حاجاتهم غير الأساسية .. تلك هى سنة الحياة فى العصر الحديث .. تجدها واضحة فى هذا المجتمع ، كما تجدها واضحة فى غيره من المجتمعات .. خصوصاً المجتمعات النامية .. التى تسابق الزمن .. ومنها المجتمع المصرى العربى .

* * *

السجون تربح في يوغسلافيا

السجن مؤسسة اجتماعية توجد ، في الوقت الحاضر ، في معظم المجتمعات الانسانية . وككل مؤسسة اجتماعية نجد للسجن بناء أو تركيباً معيناً ، كما نجد له وظائف اجتماعية معينة . ولعل أبرز سمة من سمات بناء أو تركيب السجن هي أن الأقلية فيه تحكم الأغلبية . . والأقلية في شخص إدارة السجن تكون ، بالضرورة ، أقلية قوية . والأغلبية في شخص المسجونين تكون ، عادة . وليس بالضرورة ، أقلية سلبية مستضعفة . . وربما كانت هذه الأقلية القوية . أيضاً أقلية حكيمة وعاقلة ، وربما أصبحت الاغلبية ، اقصد المسجونين ، في بعض الاحيان ،، أغلبية إيجابية متعاونة . . ويرجع هذا كله إلى نوع الوظائف الاجتماعية التي يقوم السجن بأدائها ..، فهي إما أن تكون وظائف إجتماعية هدفها العقاب ، أو أن يكون هدفها التنشئة الاجتماعية . . أي تكوين أو إعادة تكوين المسجونين ليصبحوا مواطنين صالحين في المجتمع الذي سيخرجون اليه بعد انتهاء مدة السجن .. أي ليصبحوا اشخاصاً بعد خروجهم من السجن يستطيعون أن يؤدوا أدوارهم الاجتماعية التي يتوقعها منهم هذا المجتمع . .

وأعضاء مجتمع السجن أناس شتى . وهم في الواقع لا يكونون مجتمعاً بمفهومه المعروف . . ويرى بعض الناس فيهم أنهم حثالة المجتمع .. ويرى آخرون أنهم أناس غير محظوظين ..وهم ، أولا وقبل كل شيء ، نتاج المجتمع الذي ولدوا فيه وعاشوا . . وأغلب الناس الذين يدخلون السجون من الكبار. والكبار من الناس هم غير الأحداث وهم بالضرورة ذكور أو إناث قد خالفوا نصاً من نصوص قانون العقوبات . ومنهم من ثبتت هذه المخالفة عليهم . . وهم المجرمون الكبار . . ، ومنهم من ينتظرون ثبوت هذه

المخالفة أو عدم ثبوتها . . ولا يطلق على الأخيرين صفة المجرمين حتى تثبت المخالفة . .

ويلاحظ أن المجرمين الذين يعيشون فى غياهب السجون قد يكونون من ساكنى الحضر أو من ساكنى الريف . ومنهم من كانوا يحيون قبل دخول السجن حياة البداوة . ، ولكل من هذه المجتمعات سماتها الاجتماعية المختلفة ، وظروف معاشها ، وثقافاتها . .

وهم ، أيضاً ، قد ينتمون إلى الأغلبية ، أو إلى الأقلية ، أو إلى طائفة معينة من الناس ، أو ينتمون إلى طبقة معينة ، أو يعيشون ، فى المجتمع ، كأفراد منعزلين . .

ويلاحظ كذلك . . أن المجرمين الكبار فئات . . منهم الفلاحون ، ومنهم العمال ، ومنهم التجار ، ومنهم الموظفون الصغار ، ومنهم الموظفون الكبار ، ومنهم الطلبة . إلخ . ويلاحظ ، أيضا ، أن المجرمين الكبار ، قد يكون منهم الأميون ، ومنهم الذين يحظون بقسط كبير أو صغير من التعليم . وقد يكون منهم المتزوجون ، ، وغير المتزوجين ، والمطلقون ، والمنفصلون ، والأرامل . ومنهم من له أبناء ، ومنهم من ليس له أبناء .

ونجد أن المجرمين الكبار يرتكبون أنواعاً متباينة من الجرائم . فمنهم من يرتكب جرائم الاعتداء على الأموال ، ومنهم من يرتكب جرائم الاعتداء على الأشخاص ، ومنهم من يرتكب الجرائم الجنسية ، ومنهم من يرتكب جرائم أمن الدولة . . ألخ . ونجد أيضا أن من المجرمين الكبار من يرتكب الجريمة لأول مرة ، ومنهم من يعتاد ارتكاب الجريمة ، ومنهم كذلك من يرتكب الجرائم غير المنظورة . .

ونجد ، كذلك ، أن المجرمين الكبار ، من يعتبرون مجرمين شواذ ،

ومنهم من لايعتبرون كذلك . ومنهم ذوو العاهات الجسمية ، ومنهم الذين لا عاهة لهم .

إن أعضاء مجتمع السجن أناس شتى .. لكل شخصيته الإجتماعية .. ولكل مكانته الاجتماعية .. ولكل آماله في ضوء مستوى طموحه . ولكل آلامه .. والنظرة إلى الواحد منهم يجب أن تكون نظرة شاملة .. لا تقتصر على دوره كمرتكب للجريمة بقدر ما تشمل الأدوار الاجتماعية العديدة الأخرى التي يؤديها في المجتمع كانسان اجتماعي .. وبقدر ما تشمل كيفية أداء هذه الأدوار الاجتماعية ..

* * *

وقد حظيت الجريمة ، على تباين مفهومها ، بالاهتمام الكبير في كل المجتمعات الانسانية على اختلافها .. كانت الجريمة ، وما زالت ، شيئا مخيفا رهيبا .. وضاراً . ثم أصبح اهتمام المجتمعات بالمجرم ، أيضا ، واضحا بعد ذلك . لأن الجريمة ما هي إلا سلوك بشرى لا يرتكبها الا انسان .. وأصبح من الناس ، اليوم ، من لا يقصر اهتمامه على الجريمة والمجرم فقط ، بل امتد هذا الاهتمام الى المجنى عليه . فالجريمة يرتكبها ، بالضرورة ، مجرم .. ومعظم الجرائم التي يرتكبها مجرمون ترتكب ضد مجنى عليهم . والمجرم إنسان .. والمجنى عليه ، في معظم الحالات ، انسان كذلك . وفي ضوء كل هذه الاهتمامات انبثق مفهوم معاملة المجرمين ، وخصوصا الذين يدخلون السجون . وقد تغير هذا المفهوم على مر الأيام .. وهذا شيء عادى .. أى شيء متوقع ، وانتهى الأمر ، في معظم المجتمعات ، ومنها مجتمعنا المصرى العربى ، ومنها أيضا المجتمع اليوغسلافى — الى أن تكون النظرة

نحو المجرمين الكبار أو الصغار ، نظرة يحدوها الأمل فى إصلاحهم وإعادتهم إلى حظيرة المجتمع . . أى أن تكون الفلسفة التى تسود معاملتهم فلسفة إصلاحية أولا وقبل كل شىء . . ذلك لأن المجرمين هم فئة من الأشخاص ليست فريدة فى نوعها ، إذا اعتبرنا أن مخالفتهم للقانون ، ماهى إلا مخالفة لنوع معين من القوانين السلوكية السائدة فى المجتمع . . وأنهم ، أولا وقبل كل شىء ، نتاج هذا المجتمع . .

ولعل اتفاق بعض المجتمعات على معاملة المجرمين معاملة تسودها الفلسفة الإصلاحية لايعنى اتفاقها على تطبيق هذه المعاملة . . أقصد أساليب تطبيق هذه المعاملة . فهى إذا اقتنعت بالمعاملة الإنسانية للمجرمين فإن ذلك لايعنى سوى وجود الاستعداد عندها . . والاستعداد وحده ، كما لايخفى على القارىء ، لايكفى .

فالاستعداد خطوة هامة مافى ذلك شك . . ولكن لابد أن يتلوها خطوة أخرى : وجود الإمكانيات . . وحتى إذا وجد الاستعداد للاصلاح عند المجتمعات ووجدت الامكانيات التى تيسر تطبيق هذا الإصلاح . . فهى ، بالضرورة ، مجتمعات متباينة . . أى أن ثقافاتها ، بالضرورة ، متباينة . . وأساليب الحكم فيها ، أيضاً ، متباينة . .

فالمجتمع اليوغسلافى ، مثلا ، يرى أن المسجونين آدميون . . لكل واحد منهم طاقة بشرية . . وهم كمجموعة عبارة عن طاقة بشرية هائلة . . لايجوز أن تضيع هباء . . ولا يمكن أن تترك لتتبدد . . والعمل طقس من الطقوس فى هذا المجتمع . وهو واجب وحق لكل عضو من أعضائه . . والمسجونون

مهما كانت ظروفهم فهم بعض أعضاء هـذا المجتمع . . ومعاملتهم يجب أن يـكون أهم أهدافها القيام بعملية تنشئتهم اجتماعيا . . والعمل ، وحده ، كفيل بذلك . . أى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه العملية ، فإذا أعطى المسجون الفرصة ليعمل العمل المناسب . . وينتج . . استرد كرامته . . واسترد ثقته بنفسه . . وأحس بـكيانه الإنسانى . . وأصبح مواطناً صالحاً . .

ويعطى المسجونون فى المجتمع اليوغسلافى فرصة العمل المنتج مهما كانت صور جرائمهم ومهما اختلفت مكاناتهم الإجتماعية . . ومهما تبـاينت أعمارهم ، وهم يتعلمون . . ويتدرجون فى التعليم حتى يتخرج منهم العمال المهرة وغير المهرة . . كل حسب قدراته وحسب مدة سجنه . . ولا يقف مستوى التعليم فى السجون اليوغسلافيـة عند حد . . ولعل هذا المستوى أن يصل إلى مستوى الجامعات والمعاهد الصناعية العليا . . وأهم مجالات العمل فى السجون المصانع . . وهى مصانع حديثة إذا دخلت فى أحدها تجـده مصنعا عاديا مثله مثل أى مصنع فى خارج السجن . . وتجد القتلة والمزيفين والمزورين وغيرهم من المسجونين يعملون . . كل حسب دوره . . ولا يمكن أن تميزهم عن العمال العاديين . وربما كان الـكثير منهم من الأميين . . أو من الفلاحين قبل التحاقهم بالسجن . . وانظر إليهم وهم يديرون الآلات الدقيقة . . وانظر إلى وجوههم . . وانظر إلى نظرات عيونهم تجـد العزيمة والجد وملامح الثقة بالنفس والأمل . . كما تجد صورا زاهية من الانتصار . .

وظروف العمل فى السجون هى نفس ظروف العمل فى خارجها . .

فالمسجونون يحصلون على الأجور ، كل حسب عمله ، كما يحصلون على مكافآت تشجيعية مرتين أو ثلاث مرات فى العام الواحد . وهم وإن كانوا لايتمتعون بعضوية النقابات فإن قواعد ونظم النقابات تطبق عليهم . . والضمان الإجتماعى يشمل كل المسجونين العاملين . . وأيام العمل ستة أيام وهى نفس عدد الأيام فى خارج السجن . . ويتمتع المسجونون بالأجازات الرسمية أسوة بغيرهم . . وهم ان عملوا فى أيام الاجازات الرسمية يحصلون على أجورهم كاملة . .

ولاتصرف الأجور كلها للمسجونين ، فجزء منها يوفر للمسجونين وجزء آخر ترسل إلى أسرة المسجون ، وجزء ثالث يصرف للمسجون يشترى به مايشبع به حاجاته الأساسية وغير الأساسية من كانتين السجن . . ويلاحظ أن كانتين السجن مملوء بالسلع الإستهلاكية من المأكولات والمشروبات وغير ذلك ولا يعرض الكانتين الخمور للبيع . .

ويلاحظ أن المسجون لا يعطى أى عمل اعتباطا . . فالسجن مزود بالمتخصصين الفنيين . . الذين يستقبلون المساجين فى مركز خاص ملحق بالسجن . . لدراسة كل واحد منهم اجتماعيا ونفسيا وطبيا . . ويقوم بهذه الدراسة إخصائيون اجتماعيون وتربويون وإخصائيون نفسيون وأطباء . . وفى ضوء هذه الدراسة يوجه كل مسجون إلى المهنة التى تتناسب مع شخصيته وقدراته وخبراته . . فالمسجونون ، أولا وقبل كل شىء ، آدميون . . لكل واحد منهم طاقة بشرية . . وهم كمجموعة عبارة عن طاقة بشرية هائلة . . لايجوز أن تضيع هباء . . ولا يمكن أن تترك لتتبدد . .

وتكون المصانع التى يعمل بها المسجونون جزءاً هاما من مصانع الدولة .. أى أن انتاج هذه المصانع يكون جزءاً هاما من الإنتاج القومى . .

ويجد الزائر فى مدينة مثل مدينة « نيش » سجنها المشهور باسمها . وتقع مدينة نيش على بعد ٢٤٣ كيلو مترا جنوب شرق مدينة بلجراد . . ويبلغ عدد سكانها نحو ١٠٠ر٠٠٠ نسمة .. وقد تأسس سجن نيش فى عام ١٩٢٤ ثم استكمل فى عام ١٩٣٤ وقد تهدم فى خلال الحرب العالمية الثانية واعيد بناؤه بعد الحرب . ويضم السجن نحو ١٥٠٠ مسجونا . . وكلهم من المحكوم عليهم بثلاث سنوات أو أكثر .. ويعمل نحو الألف منهم فى مصانع السجون . . يصنعون السخانات والأفران الكهربائية والموازين الدقيقة والبانيوهات وقطع الأثاثات وغير ذلك . . ويصدر معظم هذه المصنوعات إلى الخارج . . وتحصل الدولة عن طريق ذلك على العملات الأجنبية . .

وقد بلغت أرباح سجن نيش فى عام ١٩٦٢ نحو ١٠٠ مليون دينار ، وزادت الأرباح فى عام ١٩٦٣ وأصبحت نحو ٢٢٠ مليونا من الدينارات.. وتوزع الأرباح وفقاً لنظام معين بنسب معينة على الميزانية والأحتياطى ورأس المال والأعمال الجديدة والبرنامج الثقافى والمساعدات . . . وقد تبرع سجن نيش من أرباحه فى عام ١٩٦٢ لاعادة بناء مدينة « سكوبيا » التى أصيبت بالزلزال فى صيف عام ١٩٦٣ . . ويتبرع السجن سنويا بجزء من أرباحه على مؤسسات رعاية الأحداث والشباب فى المدينة . . أى أن سجن نيش ، وهو مؤسسة اجتماعية هدفها الأول معالجة الجريمة بصورها المتعددة فى محيط الكبار ، يقوم بدوره ، عن وعى ، فى ميدان الوقاية من الجريمة وفى ميدان التنمية الأجتماعية . فى محيط الأحداث وفى محيط الشباب . أى أن سجن نيش ، كمؤسسة اجتماعيـة ، يحس إحساساً واعياً . بالمسائل

الإجتماعية المتعلقة بالسلوك البشرى ، السوى وعير السوى ، فى المجتمع الذى يحيط به ، ويسهم اسهاما واعياً فى مواجهة هذه المسائل ، أى أنه يعيش واقعه ، فى ميدان تخصصه الواسع ، ويرفض العزلة والسلبية ، ويؤمن بالتفاعل الاجتماعى مع مجتمعه ..

مِنَ التَّجَارِبِ الشَّخْصِيَّة

حاجز اللغة

سافرت إلى يوغسلافيا وأنا لا أعرف لغات أهلها . . الصربية أو المقدونية أو السلوفينية ، أو غيرها .. ولا أعرف ، أيضاً ، من الحروف الهجائية إلا الحروف العربية والحروف اللاتينية . . أى إننى كنت ، ولا أزال ، لا أعرف حرفاً واحداً من الحروف اليونانية . . الحديثة منها أو القديمة على السواء . وقبل أن أسافر كنت أعرف هذه الحقائق المرة تمام المعرفة .. وكنت كلما تذكرتها .. يخفق قلبي . وكان قد قيل لى ، وربما كان هذا القول على سبيل التشجيع كما يبدو ، أن هناك .. أى فى يوغسلافيا من يتحدث باللغات التى أعرفها . وآملت خيراً . . ، وعشت على هذا الأمل حتى وصلت إلى مدينة بلجراد ..

وقد وجدت ، فى مجال العلاقات الرسمية . . أى فى مجال علاقاتى الخاصة بالمهمة الرسمية التى جئت من أجلها إلى يوغسلافيا . . إننى أعرف ، فعلا ، طريق التفاهم ، على الرغم من صعوبة ذلك فى بعض الأحيان ، مع من حولى من الناس عن طريق إحدى اللغات التى أعرفها . . وفى المنزل الذى أسكن فى احدى حجراته عرفت هذا التفاهم أيضاً ، وهو منزل لا يوجد فيه مصعد ، وقد دفعت ثمن ذلك . . فى شكل أجرة باهظة للحجرة ، وفى صورة أخرى دفعت ثمن هذا التفاهم . . ، هى أن أعيش فى الدور الرابع . . حيث أجد المجال لهذا التفاهم . . وفى المطاعم الكبيرة . . وفى الفنادق من الدرجة الأولى تيسر لى أن أشق طريق . . ولكنى لا أعيش فى هذه الأماكن أو مع من يوجدون بها فى كل يوم .. أو فى كل ساعة من الأربع والعشرين ساعة التى يستغرقها اليوم .. وأنا ما جئت الى يوغسلافيا المعاصرة الا لأعيش فى كل

مكان وأن أقابل كل انسان . وأنا ماجئت الى المجتمع اليوغسلافى المعاصر الا لأحيا التجربة الاجتماعية . حتى الذروة .. وما فوق الذروة ..

ووجدت نفسى مضطراً الى أن أواجه حاجز اللغة فى الأماكن الأخرى ومع الناس الآخرين .. فى الشارع ، عندما أكون وحدى ، لا أعرف ، عادة ، اسم الشارع الذى أكون فيه ..، ولا أستطيع أن أقرأ أية لافتة من اللافتات .. حتى لو كانت مضاءة بالنيون . ولا أستطيع أن أركب الأتوبيس .. ، ولا أستطيع أن أشترى جريدة من الجرائد .. أو مجلة من المجلات .. أو أقرأ جريدة من الجرائد .. أو مجله من المجلات .. ، ولا أستطيع أن أشترى شيئا .. طعاماً كان أو شراباً .. أو حتى دواء ، .. الا السجاير .. فالسجاير ينطق اسمها كما ينطقه الناس فى المجتمعات الغربية .. ، ولا أستطيع أن اتحدث الى مخلوق .. ، مهما كان نوعه .. أو سنه .. ، ولا يستطيع مخلوق ، مهما كان نوعه أو سنه ، أن يبادلنى الحديث .. ، لا أستطيع ، مثلا ، أن أقول عبارة « أشكرك » لأحد .. ، ولا أن أقول تحية الصباح أو تحية المساء لإنسان .. واذا قالها أحد لى فأنا لا أدرى ماذا يقول .. ؟

وتذكرت طفولتى عندما كان أبى يتحدث مع أصدقائه .. كانوا يقولون أشياء كثيرة .. كانوا يتفقون أحيانا .. وكانوا يختلفون أحيانا أخرى .. وكانت المناقشة تحتد بينهم .. وكان موضوعها كما أذكر الآن سياسياً فى الغالب .. كانوا من أعضاء الحزب الوطنى .. ، وكانوا اذا حاولوا أن يتهكموا على جرائد الحزب المعارض الكبير فى ذلك الحين .. كانوا يقولون عن جريدة البلاغ ، مثلا ، جريدة « البلاء » ، وعن جريدة كوكب الشرق جريدة « كوكب الشر » .. ، كانوا يقولون أشياء كثيرة .. وكنت ، فى واقع الأمر ، لا أفهم الا النادر مما كانوا يقولون .. ، كنت ، فى ذلك الحين ، فى السادسة أو فى السابعة من

عمرى.. وكان استيعابى للمفاهيم ضئيلا، وكانت قدرتى على التجريد ضعيفة..

وتذكرت المدرس الانجليزى فى المدرسة الخديوية الثانوية ، فى السنة الأولى ، تذكرت عندما كان يتحدث طوال الحصة وأنا لا أفهم إلا بعض ماكان يقول .. ، وتذكرت تجربتى الأولى فى مدينة لندن ، ولم أكن على معرفة مرضية باللغة الانجليزية فى ذلك الحين ، تذكرت البائعين الإنجليز.. والبائعات الإنجليزيات .. والمواقف الحرجة التى كنت أواجهها عند شراء بعض الضروريات .. ، وتذكرت كذلك تجربتى الأولى فى مدينة باريس .. وفى مدينة بوستن فى ولاية ماساتشوست بالولايات المتحدة ..، ومع كل ذلك فقد كنت أعرف اللغة التى يتحدث بها الناس فى هذه المجتمعات . كنت أقرؤها .. وكنت اكتبها.. وكنت ، مع مرور الزمن ، استوعب أسرارها .. واتقنها ..

وتذكرت الشخص الكفيف .. الذى يتحدث ويسمع وإن كان غير قادر على الرؤية . . ، وتذكرت الشخص الأصم الذى لا يسمع ولكنه يرى وربما يستطيع أن يتكلم . . ، وتذكرت الأبكم الذى يرى .. والذى يسمع . . وإن كان غير قادر على الكلام . . ، وتذكرت « هيلين كيلر » التى كانت عمياء وصماء وبكماء . . ، ولكن هؤلاء .. ، جميعاً ، يستطيعون التفاهم مع غيرهم بطريقة أو بأخرى . . ، قد تدربوا عليها ومارسوها زمنا طويلا ..

وتذكرت مشاهدة أحد الأفلام الناطقة باللغة الألمانية ..وهى لغة لا أعرفها . . ولم تكن لهذا الفيلم ترجمة مسجلة بأية لغة أعرفها . . ولكننى كنت إزاء هذا الفيلم مجرد مشاهد . . لادور لى . . ، وأما هنا فى يوغسلافيا، بالضرورة ، شخص له دور أو أدوار اجتماعية ..أعيش فى المجتمع وأحيا.. ولست مجرد مشاهد ..

ووجدت نفسى فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر أواجه ، مضطراً ،

حاجز اللغة .. وعندما أكون وحدى ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك ، أحس كأنني طفل مفقود ..

ولكن لن يعدم الإنسان الحيلة .. فالإنسان كائن حى .. والحياة قوة لا يقف فى سبيلها أى شىء .. أى حاجز .. حتى لو كان حاجز اللغة ..، والانسان أيضا كائن اجتماعى .. أى أنه يجب أن يعيش فى علاقات اجتماعية .. ووسائل الاتصال الاجتماعية عديدة .. اللغة منها ما فى ذلك شك .. ، ولكن هناك وسائل إتصال اجتماعية أخرى لجأ إليها الإنسان فى الماضى .. وهو يلجأ إليها عند الضرورات .. وفى الحياة العادية فى الكثير من الأحيان ..

تذكرت اللغات الإنسانية العالمية .. الموسيقى .. الرياضيات .. المنطق العلمى .. الحب .. معاملة الأطفال الصغار .. وممارسة لعبة الشطرنج .. وحاولت أن أستفيد منها ما استطعت إلى ذلك سبيلا ..

وتذكرت اللغات الانسانية العالمية .. الأخرى .. التى بدأ يمارسها الانسان الأول فى الأزمان الغابرة .. أصل كل اللغات الحية .. واللغات التى ماتت ..، لغات العيون ... والإشارة بالأصابع .. وبالأيدى ..، والتعبير بقسمات الوجه .. والإبتسامات .. وغيرها ..، ورجعت إلى استخدامها فى سذاجة اجتذبت أنظار الناس .. ، استحسنها البعض منهم .. وسخر منها البعض الآخر .. وبادلت من استحسن استحسانا باستحسان .. ولم آبه لمن سخر ..

واضطررت إلى أن أقول « دوبروبوترو » وأقصد صباح الخير ..، و « دوبروفيتشيه » وأقصد مساء الخير ...، و « دوبردان » وأقصد تحية

بعد الظهر . ، و « خوالا » وأقصد شكر الآخرين . ، و « دوفيجينياه » وأقصد إلى اللقاء . . و « أزبوجوم » وأقصد وداعا . . ، وعرفت إسم التفاح « يا بوكا » . . ، واسم الكمثرى « كورشكا » . . واسم العنب « جروشجيه » . ، واسم القهوة « كافا » . . وعرفت أن إسم الشاى « شاى » . . ، وأن إسم الشوربة « شوربة » . . الخ . . ولم أقل هذه الكلمات . . وغيرها . . فى أول الأمر . . ولكنى كتبت كلا منها على حدة ، على وريقات صغيرة . . ، ثم أقرأ الوريقة المناسبة . . فى الوقت والمكان المناسبين . . حتى حفظتها . . وحفظت غيرها من الكلمات والتعبيرات . . وكثيراً ما قوبل فعلى هذا ، أى قراءتى وريقة وريقة ، بالابتسامات . . ، الابتسامات الباهتة أحياناً . . والساخرة أحيانا أخرى . . والابتسامات الحانية فى معظم الأحيان . .

ولكنى بقيت ، مع ذلك عندما أكون وحدى . كأنى طفل مفقود . . ، أواجه النـــاس فى المجتمع اليوغسلافى ، وأواجه المواقف مع الناس اليوغسلافيين ، على اختلاف مشاربهم . بأساليب تضحك الثكلى . . ، خصوصا بعدما عدلت عن طريقة الكتابة ، كتابة الوريقات وقراءتها ، السالف ذكرها . . ، وبدأت أتحدث من الذاكرة . فكنت ، مثلا لا أطلب شيئاً ويأتينى هذا الشىء . . وقد أطلب شيئا معينا ولا يأتى هذا الشىء ولكن يأتى غيره . . ، وقد أحاول أن أتظرف مع الناس فأقابل بالتجهم . . ، وأحاول مرة أخرى أن أكون متجهما فأجد من يتظرف معى . . ، وعندما أريد أن لا أتحدث مع الناس يتحدث الناس معى . . ، وإذا فقدت الطريق لا أجد من يدلنى على هدفى . . ، وإذا طلبت القهوة « سادة » لابد أن أشربها « سكر زيادة » . .

ومع مرور الأيام عرفنى الناس من حولى . . ووضحت الرؤية ، رؤية المجتمع اليوغسلافى فى مدينة بلجراد ، أمامى بعض الشىء . . عرفتنى بائعة

السجاير .. ، وعرفني البقال .. ، وعرفتني حلاقة الشعر .. ، وعرفني كل « جرسونات » فندق « سلافيا » ، وفندق «المتروبول» ، وفندق «موسكو» ، وفندق « البلقان » ، وفندق «براج» ، وفندق « الماجستيك » وكذلك عرفني « جرسونات » مطعم « شوماديا » الذي يؤمه رجال الأعمال اليوغسلافيون وغيرهم ، ومطعم «زجرب» المشهور برخص الأسعار ، ومقهى «ترازيا» .. وعرفتني بائعة الكتب .. ، وعرفتني بائعة الاسطوانات الموسيقية .. ، وأصبحت بائعة الزهور تبتسم لي كلما مررت من أمام الحانوت ..

عرف كل هؤلاء ، وغيرهم ، إنني مصري عربي .. وكانوا إذ يرحبون بي ، إذا تعاملت معهم ، ويبادلونني المودة .. يذكرون ، بالحب والاكبار ، إسم جمهوريتنا الحبيبة .. كما يذكرون زيارات الرئيس « ناصر » المتكررة إلى يوغسلافيا .. البلد الصديق .. ويبدون ما يوحي باهتمامهم بتتبعها ..

* * *

مِنْ أنماط السلوك البشري

منذ نحو إحدى عشر سنة كنت فى الخارج .. فى مدينة بوستن عاصمة ماساتشوست إحدى ولايات جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية .. ، وقد تعودت عندما أذهب إلى الخارج ، فى اللحظات الأولى من وصولى إلى البلد الذى أقصده ، خصوصا إذا كانت فترة حياتى فيه طويلة ، أن أفعل ثلاثة أمور : أن أشترى خريطة تبين معالم البلد ، وأن أشترى راديو صغير ، لأننى اعتبر جهاز الراديو نافذة رائعة تطل على البانوراما الثقافية للبلد ، وأن أشترى جهازاً متواضعا لسماع الموسيقى « بيك آب » وبعض الاسطوانات التى أعرفها ، وبعض الأسطوانات الموسيقية الأخرى التى أحاول أن أتعرف عليها . . فالموسيقى ، فى رأيى ، غذاء روحى لا يمكن الاستغناء عنه خصوصا وأنا فى غربتى . .

وقد فعلت هذه الأمور الثلاثة ، فى التو واللحظة ، عندما وصلت إلى مدينة بوستن منذ إحدى عشرة سنة تقريبا .. وفى يوم من أيام الآحاد .. وأنا أذكر الآن ذلك جيداً ، لأننى أستيقظ فى هذا اليوم متأخراً ، وهى عادة اكتسبتها من الأميريكيين ، وقد اكتسبتها ، فى الواقع ، مضطراً .. منفذاً حرفية المثل القائل « أفعل كما يفعل أهل روما » . ، وكان قد مر على فى المدينة أكثر من سنة .. لم أسمع فيها كلاما عربيا .. ولم أتحدث ، بالطبع ، مع أحد باللغه العربية .. استيقظت فى ذلك اليوم متأخراً .. وحاولت أن أفتح الراديو الصغير ، وكان بجوار السرير ، وأنا مازلت شبه نائم ، ويبدو أن المشير إلى المحطات قد تحرك فى أثناء ذلك وأشار إلى محطة معينة لم أكن أعيرها اهتماما من قبل ، لا فى أيام الآحاد ولا فى غيرها ، وبعد برهة سمعت

من هذه المحطة ما أذهلنى .. كنت نائماً أو شبه نائم .. فاستيقظت .. عيناى مفتوحتان .. ونبضات قلبى تدق فى عنف .. والدم .. دمى يسرى فى سرعة مذهلة إلى وجنتى .. ، ووجدت نفسى على الأرض . أرض الحجرة .. تاركا السرير .. أرقص على نغمات أغنية لأسمهان ، وأذكر أنها كانت أغنيـــة « أهوى .. يامين يقوللى قهوة .. » ، وعرفت المحطة . وتأكدت من رقم موجتها . ومن فترة العمل بها . . وعرفت أنها تذيع برنامجاً عربياً خاصاً بالإقلية السورية اللبنانية التى تعيش فى مدينة بوستن ويذاع هذا البرنامج كل يوم أحد .. ، فى نفس الوقت الذى حدث لى فيه ما حدث ولمدة نحو ساعة .. وكنت دائما مع هذا البرنامج فى موعده المحدد طوال مدة سنتين أو يزيد . . وهى المدة التى عشتها فى مدينة بوستن بعد ذلك .. ، وكانت التغييرات البيولوجية التى حدثت فى كيانى فى أول مرة تحدث وتتكرر فى كل مرة استمع لهذا البرنامج الأسبوعى ، واذكر أن بعض الزملاء الأمريكيين قد عرفوا ذلك . . فكانوا ، هم ، أيضا ، يأتون فى الموعد المحدد ويستمعون للبرنامج . ويروننى .. وأنا على هذه الحال من السرور الغريب الذى كان يملأ على كيانى . ويرون أيضا انفعالاتى .. وآثار ازدياد نبضات قلبى .. واحمرار وجنتى وخفتى .. ورقصى . إلخ . أما هم فكانوا يجلسون كالأصنام مبهوتين . ينظرون إلى وأفواههم شبه مفتوحة . أما الموسيقى فقد كانوا لا يعيرونها أى اهتمام . . وكذلك الأغانى . ، وكان إذا حاول أحدهم أن يتظرف . . أو يسخر . . ينطلق مقلداً الموسيقى أو الأغنية المذاعة بصوته المزعج مما كان يدعونى إلى الثورة عليه .. ويدعو الآخرين الصامتين إلى محاولة إسكاته . . مجاملة لى . .

وأنا ، هنا ، لا أجادل فى تأثير الموسيقى فى نفوس الناس . . فهى تضحكهم . وهى تبكيهم . ، وهى تثير فى نفوسهم الشجون والانفعالات

المتعددة . والدليل على ذلك لا يأتى ، كما يعلم القارىء . من تجارب هواة سماع الموسيقى فحسب . . بل يأتى أيضا من تجارب أى شخص عادى إذا سمع وهو كهل ، مثلا ، أغنية كان يسمعها وهو فى سن الشباب — ولكن الذى أحاول توضيحه هنا هو : لماذا كلما كان يحاول أحـــد الزملاء الأميريكيين أن يسخر من الموسيقى ومن الأغانى التى كنت أسمعها فى إذاعة بوستن .. فى ذلك البرنامج الخاص .. أو كلما كان يحاول حتى أن يتظرف .. عندما كان ينطق مقلداً إياها بصوته المزعج .. لماذا كنت أثور عليه . . ؟ لماذا كان هذا الموقف الاجتماعى يثير انزعاجى وقلقى إلى حد الثورة؟ .. هل يرجع إتجاهى الثورى هذا إلى وجود مجالين اجتماعيين . مجالى الاجتماعى الخاص بى : قيمه واتجاهاته .. والمجال الإجتماعى الخاص بالزملاء الأميريكيين؟ هل كان حضور هؤلاء الزملاء للاستماع للبرنامج مجرد حب الاستطلاع لا المشاركة الوجدانية ؟ هل كان هؤلاء الزملاء موجودين معى وهم فى الواقع كانوا منعزلين عنى ثقافيا واجتماعيا ؟ . إذا رأى القارىء أن الإجابة على الأسئلة الثلاثة الأخيرة . بالإيجاب . فأنا أوافقه على ذلك كل الموافقة ، لأننى كنت ، فى هذا الموقف ، فى الواقع ، شخصا قد وجد من موسيقى المجتمع الذى يمثل ثقافته ومن أغانيه مناخاً اجتماعيا محببا . بل ومقدسا ، فعاش فيه بكل كيانه .. وقد أثر هذا المناخ الاجتماعى ، بدوره ، فى الكيان .. كيان هذا الشخص . لا ثقافيا فحسب بل بيولوجيا كذلك . . ، وماذا كان الزميل الأميريكى يفعل فى الواقع ؟ . أنه بسخريته أو بتظرفه .. كان يهدد جزءا هاما من جهاز قيمى الذى يكون جزءا هاما من شخصيتى ... وماذا كان موقفى إزاء هذا فى الواقع .. ؟ إننى ثرت .. وكانت ثورتى على مستوى معين من التصرف .. كانت ، فى حقيقة الأمر إحتجاجا صارخا . فأنا مثلا لم أمسك بتلابيبه .. أو اعتد على شخصه أو جسمه ..

وقد تكون ثورة شخص آخر ، إذا ما هدد جهاز قيمه أو جزء هام

منه ، على مستوى معين اخر من التصرف . قد تكون ثورة عارمة تسيل بسببها الدماء . . ، ولعل تصرفات بعض الذين يحيون فى مجتمع فى ظل ظاهرة كظاهرة الثأر أن تكون بعض الأمثلة على ذلك . . ، فعند الواحد من هؤلاء الأخذ بالثأر أمر محتوم ، لأن الثأر « زى الجنة ما يسوس » . وقد تكون ثورة الشخص المتدين ، أيضاً ، إذ ما هدد فيما يعتقد ويرى ، بأسلوب أو بآخر ، على مستوى معين ثالث من التصرف ، وقد تكون ثورة عارمة أيضاً .. وهكذا ..

وعلى العكس مما حدث فى مدينة بوستن قد حدث فى مدينة بلجراد . . وفى مدينة نيش . . . فعندما جئت إلى جمهورية يوغسلافيا .. وخصوصاً عندما وصلت إلى مدينة بلجراد فعلت ما اعتدت أن أفعله وأنا فى الخارج ما عدا شيئاً واحداً .. هو أننى لم أشتر جهاز الراديو الصغير . أى أننى اشتريت خريطة تبين معالم مدينة بلجراد . . واشتريت جهازاً متواضعاً لسماع الموسيقى وبعض الأسطوانات الموسيقية وغيرها .. ولم أشتر جهاز الراديو الصغير بسبب حاجز اللغة أولا . وبسبب أن مدة إقامتى فى يوغسلافيا محدودة نسبيا . . وفى يوم من الأيام .. فاجأتنى السيدة التى استأجرت غرفة فى بيتها .. وإذا بى أسمع من جهاز الراديو الذى تملكه أغنية السيدة فايده كامل « عاد السلام يانيل » . . ، وحدث لى ما حدث عندما سمعت البرنامج العربى الخاص من إحدى محطات إذاعة مدينة بوستن . . كنت جالسا أقرأ فى حجرتى كتابا عن الكاتب الكبير « هيمنجواى » . . وإذا بى أفاجأ بسماع الأغنية المشار إليها . . لم أستطع القراءة أبداً . كانت الكلمات تتراقص أمامى . . ، ووجدت نفسى أترك الكتاب وأترك الكرسى الذى كنت أجلس عليه . . ثم وجدتنى واقفا فى وسط الحجرة . . وأنا أستمع لبرنامج « صوت العرب » الذائع الصيت .. ودقت نبضات قلبى فى عنف . وسرى

الدم .. دمى فى سرعة مذهلة إلى وجنتى . وأخذت أستمع للاغنية بكل حـــواسى . . ، وفى هذه الأثناء جاءت السيدة وهى تبتسم إبتسامة كلها الرقة . وكلها العذوبة .. ، ولم يسعنى إلا أن أقدم لها شكرى الصادق .. ، وكانت منها لفتة كريمة لا أنساها . . ، وقد سمعت هذا البرنامج يوميا بعد ذلك .. وكانت التغييرات البيولوجية التى حدثت فى كيانى فى أول مرة تحدث وتتكرر فى كل مرة أستمع له .

وفعل نفس ما فعلته هذه السيدة محافظ سجن نيش .. كنت فى حجرة مكتبه أتحدث معه ومعنا ثالث كانت مهمته أن يقوم بترجمة حديثى وحديثه إلى اللغة التى يعرفها كل منا .. ، وكنا نجلس نحن الثلاثة بعيداً عن المكتب الذى يجلس عادة عليه . . على بعض الكراسى فى ركن من أركان الحجرة .. ، وتركنا المحافظ لحظة إلى مكتبه وكانت الساعة تبلغ الواحدة والنصف بعد الظهر .. ثم عاد توا . . ، وسمعت إذاعة القاهرة معلنة وقت قراءة الأخبار . ، وكانت مفاجأة سارة .. وحدثت التغييرات البيولوجية فى كيانى . ولاحظت أنه لم يحدث منها شىء لأحد الرجلين . . وكانت مجاملة لطيفة .. لم يسعنى إلا أن أقدم للمحافظ بعدها بل فى أثنائها شكرى الصادق ..

وأنا أسائل نفسى فى هذه اللحظة . . لحظة كتابة هذه السطور قائلا : ما الذى حدث فى ذاتى ؟ ما هى الآليات التى حدثت فى شخصيتى . . والتى جعلتنى فى أول مرة ، فى مدينة بوستن ، أثور .. ، وفى المرتين التاليتين ، فى مدينة بلجراد ، وفى مدينة نيش ، أقدم شكرى الخالص ؟ لماذا حدثت التغيرات البيولوجية ، عند استماعى لهذه البرامج ، فى كيانى ؟ أنه يبدو لى أن الجهاز العصبى فى جسمى يفعل ما يفعله الجهاز الهضمى . . إن الجهاز

الهضمى .. إذا أكلت كسرة من الخبز ، مثلا ، يمضغها ثم يبلعها ثم يهضمها ثم يتمثلها .. ويصبح الجزء الصالح منها ، بعد ذلك ، جزءا من جسمى . فهل يفعل الجهاز العصبى ، يا ترى ، ذلك فى كيانى ، بطريقة أو بأخرى ، إزاء المواقف الاجتماعية التى أواجهها والخبرات الإجتماعية التى أعيشها .. وإزاء القيم التى أعتنقها . فضلا عن الإتجاهات التى تكون من ورائها ، عادة ، هذه القيم الإجتماعية ؟ أى هل الجهاز العصبى يستوعب هذه الأمور ثم يهضمها ثم يتمثلها .. ؟ ولكن نلاحظ أن كسرة الخبز تؤثر ، ما فى ذلك شك ، فى جسمى بيولوجيا .. ومن التجارب السابقة فعلت ذلك فى جسمى ، الموسيقى العربية التى سمعتها .. وكذلك الأغانى العربية .. وحتى الألفاظ العربية . وكسرة الخبز ، كما يعلم القارىء ، شىء مادى .. والاستماع للموسيقى العربية أو للأغانى العربيـــة أو للألفاظ العربية يعنى الاستماع .. لقيم أو أفكار .. فهل يعنى هذا أن المادة (كسرة الخبز) وأن الفكرة (قطعة الموسيقى أو الأغانى أو الألفاظ العربيـــة المشار إليها) تتلاقيان ؟ هل هما تتلاقيان ، مثلا ، فى شخصيتى .. وفى شخصية كل من الأشخاص الذين يمرون بنفس التجارب ؟ هل هما ، فى ضوء كل هذا ، شىء واحد ؟.

ومهما يكن من الأمر .. فكل شخص عادى ، مهما كانت مكانته الإجتماعية ، فى الواقع ، له جهاز معين من القيم الإجتماعية . يمثل ، عنده ، أنبل الأمور .. وأقدس الأشياء .. ويبذل الشخص العادى فى الدفاع عن هذا الجهاز النفس والنفيس .. ، ومع ذلك فالقيم الاجتماعية غير ثابتة . أى أنها متطورة دائماً .. متغيرة أبداً . ولكن يلاحظ أن تطور القيم الاجتماعية عند الشخص .. أى شخص ، وتغيرها ، يحتاجان ، عند هذا الشخص ، إلى استعداد لذلك . وحتى إذا وجد هذا الاستعداد ، فإن الحاجة إلى الإمكانيات التى تساعد على هذا التطور وهذا التغير ضرورة حيوية .. أى

أن وجود الاستعداد مع عدم وجود الإمكانيات لا جدوى منه . . ويمكن أن نقول أن العكس صحيح . . ، فالشعب المصرى العربى ، مثلا ، قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان فى ضوء ظروفه التاريخية القاسية ، بوجه عام ، يعيش على جهاز معين من القيم الإجتماعية . وكان هذا الشعب العظيم ، فى ضوء هذه الظروف الرهيبة ، قد اتخذ آليات معينة للتصرف . . منها أن يشاهد الثقافات والقيم التى تمر عليه حيناً بعد حين . . ، لم يغترف من إحداها . . كان مجرد مشاهد . وقد اضطرته المحن والبلايا التى عاشها أن يؤدى دور المشاهدة والانتظار حقبة طويلة من الدهر . . لم يكن مستعداً لأن يتلاقى مع غاصبيه فى شىء . . لا عن عجز . . ولكن كأسلوب اتخذه لنفسه وآمن بجدواه فى ضوء تجاربه العديدة المريرة ، التى عاشها فى مجتمعه القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة ..... ولما عرف هذا الشعب العريق طريقه السليم بعد الثورة . أصبح تصرفه إيجابيا . . أى أصبحت آليات تصرفه على استعداد للتلاقى مع قادته . أبنائه . . ، وهو يبنى الإمكانيات الضخمة الآن التى تيسر تطوره ليستأنف أداء واجباته نحو الوطن العربى كله ونحو الإنسانية . جمعاء . .

* * *



برج الجماجم الآدمية

عندما زار « لامارتين » الشاعر الفرنسى المعروف هذا البرج فى عام ١٨٣٣ كتب أبيات من الشعر يقول فيها ما معناه :

« فليحتفظ الشعب الصربى بهذا الأثر . . أنه سيعلم أطفالهم القيمة التى تتضمن استقلال شعب .. وأنه سيريهم فداحة الثمن الذى دفعه آباؤهم فى سبيل هذا الاستقلال . . » .

وقد شيد خورشيد باشا القائد التركى هذا الأثر منذ نحو ١٥٤ عاما .. أى فى عام ١٨٠٩ .. شيده من جماجم الصربيين الأحرار الذين قاتلوه كغتصب فى سبيل استقلال وطنهم . . قاد الزعيم الثائر « ستيفان سنجاليتش » جنوده الصربيين ضد الأتراك المستعمرين . . وكان عدد الجنود الصربيين نحو ثلاثة آلاف مقاتل . . كانوا يقاتلون نحو ١٨٠٠٠ من الجنود الأتراك بزعامة خورشيد باشا . واستغرق القتال نحو اثنى عشرة ساعة مات الصربيون فى خلاله ماعدا ستيفان ستجاليتش ونحو خمسين مقاتلا صربياً . ولم يستسلم الأخيرون . . بل واصلوا القتال . . حتى قتلوا جميعاً ومات معهم نحو مائتين من الأتراك . .

وقد ضرب الصربيون الثائرون مثلا وطنياً رائعاً . . جعل خورشيد باشا يفكر ويقدر . . وعرف أن خصومه لا يخشون الموت . . فالموت عندهم أصل الحياة . . وإذا هان الموت وهبت الحياة . . وكان خورشيد باشا أنانياً .. لأنه كان طاغية . . لم يذكر إلا نفسه . . وكرامته وهيبته . وكل هذه ترهات لا يأبه بها الزمن . . ولا يعترف بها إلا الأغبياء . فماذا

فعل هذا الأنانى الطاغية ؟ اتخذ من « تيمور لنك » مثالا يحتذى ألم يبن تيمور لنك سورا من جماجم أعدائه ليرهبهم ؟ فليفعل هو ذلك . وليتمسك بهذا السلاح الواهى . وكان ما كان . .

عهد هذا الغاشم المتكبر إلى جنوده أن يشبعوا فى الصربيين قتلا وتقتيلا ، وجعل لكل رأس ثمنا . . نحو خمسة وعشرين قرشاً لكل رأس . . وفى نفس العام أى فى عام ١٨٠٩ منـــذ نحو ١٥٤ عاما بنى برج الجماجم . . وتبلغ مساحته أربعة أقدام مربعة وارتفاعه خمسه أقدام . . بنى هذا البرج وكانت أدوات البناء الرئيسية ٩٥٢ من الرؤوس الآدمية وبعض الطين والحجارة . . ولعل هذا المعتوه أن شفى غليله . . ولعل هذا الأنانى الطاغية أن تصور أن هذه هى نهاية الأحرار . .

ومن يذهب الآن إلى مدينة « نيش » يجد هذا الأثر قائماً . . ولعل من يذهب الآن أن يجد ٦٢ من الرؤوس الآدمية فقط . فالحائط الشرقى للبرج قد تحطمت جماجمه بسبب الرياح الشرقية . . ، ومن يذهب الآن إلى مدينة « نيش » يجد أبناء الضحايا أو أبناء أبنائهم يعيشون حياة الأشراف المستقلين . . يبنون حضارتهم مع البانين من أبناء جمهورية يوغسلافيا ، ومن يذهب الآن ، إلى مدينة « نيش » يجد ، حتما ، اللعنة الأبدية التى اختارها خورشيد باشا لنفسه ، تصب جامها ، بكل اللغات ، على أم رأس هذا الملعون . .

ولا أخفى على القارىء شيئاً فقد زرت هذا الأثر ثلاث مرات . . ولم أكن أتصور عندما سمعت بوجوده أن ترى عيناى ما رأتا . . ما أشنع ما رأيت فى كل مرة . . إن ما رأيته أشنع بمراحل مما رأيته عندما شاهدت الشجرة التى يعلق عليها صائدو الرؤوس الآدمية ، فى بلاد أسام ، جماجم ضحاياهم . إن هؤلاء البدائيين يفعلون ذلك مؤمنين بلون معين من تناسخ

الأرواح . . أى أنهم يهدفون إذ يفعلون ذلك إلى ابقاء الحياة مستمرة . وليس فيما فعل خورشيد باشا شيء من هذا القبيل . . إنه فعل مافعل لأنه كان أنانياً لأنه كان طاغية . إنه فعل ما فعل لأنه كان يهدف إلى الارهاب إرهاب الشعب المصرى الشجاع . . ولكن هيهات . . أين هو الآن . . ؟ وأين الشعب المصرى المجيد الآن . .

ولعل شناعة ما رأيت كانت أبلغ مما قد يراه غيرى من ممثلى الثقافات الأخرى . . فأنا أمثل ثقافة قديمة مستمرة . . آمنت ، أول ما آمنت ، بنوع معين من قداسة الجسم الآدمى وهو حى . وبعد أن يموت . . ثقافة قديمة مستمرة قد حرصت على كمال الجسم الآدمى فى أثناء الحياة . . كما حرصت على حفظ الجسم الآدمى بأكمله بعد الموت . . ، وهاانذا أرى مجرد جماجم ميتة أمامى . . استخدمها الطاغية خورشيد باشا . . فى بناء برجه الشنيع ، وهى جماجم لأبطال أحرار كان كل ذنبهم أن ثاروا ضد الاستعمار والاستبداد.

ولم تكن الجماجم ، كلها ، فى هذا البرج الذى بناه الملعون سليمة . .فقد تركت ، بمرور الوقت ، عوامل التعرية بصماتها عليها . فترى بعض هذه الجماجم قد تهشم وتحطم . . أو كاد . . لم يبق منه سوى ما كان يمكن أن يكون العيون . . أو الجباة . . أو الأنوف . . أو الافواه . ومع ذلك فقد ترى بعض هذه الجماجم سليما . . يكاد أن ينطق بألوان العذاب التى لاقاها أصحابها . وآه من فتحات الافواه فى هذه الجماجم . . وآثار تقلصات الشفاة التى مات أصحابها عليها . . وآه من بقايا الصرخات التى كانت . . وآه من سمات الهلع التى تبدو . . وآه مما كانت تقول للرائى . .

وتذكرت بلادى العزيزة ، وأنا واقف أمام هذا الاثر ، فى كل مرة زرته . . تذكرت الهكسوس والفرس واليونان والرومان . . وتذكرت الاتراك . . وتذكرت الفرنسيين . . وتذكرت أسرة محمد على والانجليز . .

تذكرت هؤلاء المستعمرين المستبدين . . وعشت تجارب ما فعلوا لأهل بلادى فى هذه اللحظات . وملأتنى المشاعر المتعددة . . مشاعر الحزن والكمد والأسى . . ومشاعر السخط والغيظ والكراهية . وبينما أنا على هذه الحال تذكرت ، أيضاً ، إحدى تجاربى الشخصية فى مدينة لندن . . فى عام ١٩٥١ . قابلت الشاعر الانجليزى العظيم « ويلفرد بلنت » فى كتابه « سر الاحتلال الانجليزى السكسونى لمصر » . . وقد حصلت على نسخة منه دفعت فيها ، كما أذكر الآن ، كل ما أملكه من نقود فى ذلك الحين . وكانت هذه التجربة من التجارب الحاسمة فى حياتى . . عشتها وأنا كالمذهول كنت أقرأ فى هذا الكتاب فى كل ليلة قبل أن أذهب إلى الفراش . . ، كنت اقرأ وأقرأ حتى يهدنى التعب . . وحتى تشل تفكيرى مشاعر الحزن والكمد والأسى . ومشاعر السخط والغيظ والكراهية . . كان قلبى يبكى .. وكانت عيناى تدمعان . . لم أكن أتصور الحقائق التاريخية التى كتبها هذا الرجل الانجليزى عن بلادى . . وعن أهل بلادى . لم أكن أتصور وجودها وصحتها . . فقد كان قد ملأنى الشك ، فى هذا الرجل ، فى أول الامر ، ولكن ما لبثت أن تأكدت من صحة ما يقول . فالحقائق تستمر حقائق حتى لو أخفيت إلى حين . . حتى لو تعمداخفاءها أصحاب المصلحة فى هذا الاخفاء من الظالمين والمستبدين .

وها هى ذى بلادى قد استقلت على الرغم من كل شىء . . وها هو ذا الشعب المصرى العربى الكريم قد أصبح حراً على الرغم من التجارب المريرة التى واجهها على مدى العصور والازمان ، وها هو ذا الشعب المصرى العظيم قد أصبح يملك زمام أمره على الرغم من الاتراك ، وخورشيد باشا واحد منهم ، وعلى الرغم من هتلروزمرته من الفاشيين . . وغيرهم . . وعلى الرغم من التجارب الرهيبة التى عاش بلاياها وأهوالها . فما جدوى الاستبداد والظلم إذن ؟ ما جدوى الإرهاب والتعذيب اذن ؟ ألا يبدو أن استبداد

الناس بالناس وظلمهم إياهم وإرهابهم وتعذيبهم ليست كلها ، على الرغم مما يقصده من استخدامها المستبدون والظالمون والمرهبون والمعذبون ، شراً مطلقاً ؟ إن كل الامور والاشياء ليست كلها ، على الرغم مما يبدو من بعضها من شر ، شراً مطلقاً . إن المواقف وحدها هى التى تقرر الشر وهى التى تقرر الخير . إن ما يبدو خيراً فى موقف معين هو الشر بعينه فى موقف آخر . . والعكس صحيح . إن ما قصده خورشيد باشا ، وما يقصده من على شاكلته ، كان شراً مطلقاً ما فى ذلك شك . ولكن خورشيد باشا كان أنانياً . . كان طاغية .. أى أنه كان أعمى قد ضل الطريق . . لم يذكر إلا نفسه . . وكرامته .. وهيبته . وكل هذه ترهات لا يأبه بها الزمن . . ولا يعترف بها إلا الأغبياء . .



بصمات المحنة

لقد بدت لى السيدة التى أسكن فى إحدى غرف بيتها فى مدينة بلجراد، وأدفع لها إيجاراً شهريا مرتفعا نظير هذا المسكن . . ، لقد بدت لى ، فى خلال الأسبوعين الأولين من إقامتى فى هذا المسكن ، مواطنة عالمية . فمنذ اللحظة التى دخلت فيها بيتها ، وشممت الرائحة التى تنبعث منه ، تذكرت المناسبات العديدة للمرات العديدة التى دخلت فيها بيوت غيرها ممن هن على شاكلتها .. فى مدينة لندن .. وفى ضاحية وولتش .. وفى مدينة كارديف .. وفى مدينة هل .. وفى مدينة باريس . وحتى فى مدينة بوستن . أجل .. وأنا لا أتجنى .. وجدت فى سيدة مدينة بلجراد ، فى خلال هذه الفترة ، ملامح صارخة من ملامح مسز كروس ومسز برومبكوم ومسز بوينر ومسز بروم ومسز تريس ومسز ارمسترونج ومدام بيرك ومسز وليامز ، وذلك على الرغم من بعد الشقة بين هؤلاء السيدات . وعلى الرغم من اختلاف ملامح المجتمعات التى يعشن فيها ، الملامح الثقافية والسياسية . فمجتمع مدينة لندن ، كما يعلم القارىء ، يختلف ثقافياً عن مجتمع مدينة كارديف فى ويلز .. وعن مجتمع مدينة هل فى إنجلترا . ومجتمع مدينة لندن فى إنجلترا يختلف فى ملامحه الثقافية عن مجتمع مدينة بوستن فى ولاية ما ساتشوست فى الولايات المتحدة ، وعن مجتمع مدينة باريس فى فرنسا . وكل واحد من المجتمعات السابقة يختلف عن مجتمع مدينة بلجراد فى يوغسلافيا ، سياسيا وثقافيا ، اختلافا يكاد أن يكون جذريا .

فالسيدة « هومتش زوركا » أو « زوركا هومتش » ، على اعتبار صحة نطق الإسمين هكذا فى المجتمع اليوغسلافى .. وأن إسم « هومتش » هو إسم

العائلة .. ، وهى السيدة التى أسكن فى إحدى غرف بيتها فى مدينة بلجراد، مثل الأخريات . فعمرها يزيد على الخمسين . . وهى أرمل . . وهى أيضاً مكورة الجسم وقصيرة القامة ، تجدها تعمل منذ الصباح المبكر ، فى البيت ، وفى خارج البيت ، عملا متواصلا . . حتى منتصف الليل وربما أكثر من هذا الوقت . وهى تحب النظافة إلى درجة الهوس . أما شخصيتها فتملأ زواياها الوساوس . وهى تشكو أحيانا ، وربما تبكى أحيانا أخرى ، ولكنها تثرثر دائما . تراها تتصرف أحيانا تصرف الأذكياء ولكن فى غباء .. تحاول أن تكون كريمة فى بعض الأحيان ولكن يتغلب على هذا الكرم ، الذى بدا لى أنه كان كرما أصيلا فى يوم من الايام ، شىء يشبه الشح أو يشبه الجشع المكتسب . ومهما يكن فقد لاحظت ، فى خلال فترة الأسبوعين الأولين من إقامتى فى مسكنها ، أن السيدة زوركا لا يسعدها شىء فى الوجود سوى الحصول على شىء من النقود .. ، ولا يتعسها شىء فى الوجود سوى أن تعطى شيئاً من النقود .

وبدا لى ، فى هذه الفترة ، أيضاً ، أن أهداف السيدة زوركا فى الحياة قليلة أو أنها أصبحت ، فى ضوء ظروف حياتها ، التى سأتولى شرحها بعد قليل ، قليلة . وهى فى كلمة .. أن تعيش .

وفى أثناء فترة الاسبوعين المشار إليهما جمعت بعض الحقائق . . منها أن السيدة زوركا لم تفتح بيتها لسكنى الغرباء فيه إلا منذ سنوات قليلات . ولعلها لم تكن تحلم فى شبابها أنها كانت ستفعل ذلك أبداً . فقد كانت قبل عشرين عاما أو أكثر قليلا سيدة من سيدات الطبقة الراقية فى مجتمع ماقبل الثورة فى يوغسلافيا . فقد كانت ، عن طريق زوجها ، تمت إلى الاسرة الحاكمة ، إذ ذاك ، بنسب وثيق . والصور والوثائق التى تملأ حيطان غرف

بيتها تنطق بملامح الدنيا التى كانت تعيشها هذه السيدة .. دنيا الحفلات .. ودنيا السباق .. ودنيا اليذخ .. ودنيا الأناقة . وحتى البقية الباقية من أثاث المنزل تنم عن الجاه الذى كان والعز السالف فضلا عن الذوق والجمال ...

ويبدو لى الآن أنه لولا الظروف التاريخية التى واجهتها السيدة زوركا فى بلادها .. ولولا الظروف القاسية التى واجهتها أنا فى الفترة الاولى من حياتى فى مدينة بلجراد لما كنت قد عرفتها .. أقصد لما كنت قد تعرفت عليها ثم عرفتها . فمنذ أن جئت إلى هذه المدينة وأنا أواجه ، فى خلال الفترة الاولى من حياتى بها ، عدم الاستقرار فى مسكن تطيب الاقامة فيه ... ، كنت كالطبق الطائر .. أنتقل من فندق إلى آخر... ومن حجرة فى الفندق إلى أخرى . وفى خلال أسبوع واحد .. أذكر أننى انتقلت من مكان إلى آخر خمس مرات أو نحو ذلك . ولم يكن الذنب ذنبى فى كل هذا .. ولكنها الازمة المتسلطة .. أقصد أزمة المساكن التى يعيش تجربتها أهل مدينة بلجراد فى الوقت الحاضر . فعلى الرغم من كراهيتى العميقة المكتسبة ، فى ضوء تجاربى ، للمعيشة فى الفنادق فقد قبلت ، عن طواعية لا عن رغبة ، المعيشة فى الفنادق . ولكنى وجدت أن الحياة اللائقة فى الفنادق تأكل ثلثى مرتبى الشهرى نظير استخدام الحجرة فقط .. ذلك لأننى أجنبى ، ولو كنت مواطناً يوغسلافيا لكان إيجار نفس الحجرة ربع هذه القيمة . ولما كنت غير مستعد لأن استبدل بجنسيتى المصرية العربية جنسية أخرى ، حتى لو شنقونى ، فقد ذهبت إلى فندق من نوع آخر .. كان هذا الفندق ، كما عرفت بعد ذلك ، أحد الفنادق من الدرجة الخامسة .. أو الدرجة العاشرة .. بالمقارنة بفنادق حى سيدنا الحسين بمدينة القاهرة .. إذا اعتبرنا أن الفندق من فنادق هذا الحى .. أى فندق .. من الدرجة الاولى ..

وأنا لم أذهب إلى الفندق الثانى إلا بعد أن أوصى به خيرا أحد الموظفين فى هيئة الأمم المتحدة . . وهى الهيئة التى أعتبر نفسى ، بل هذا هو الواقع، ضيفها ، فماذا وجدت ؟ وجدت فى كلمة ، ولا داعى إلى الثرثرة ، القذارة المادية والإنسانية تملأ المناخ الاجتماعى للمكان . ولم أطق الحياة فى هذا الفندق أكثر من ليلة هربت بعدها إلى الشارع .. (الواقع أننى لم أطق الحياة فى هذا الفندق أكثر من دقائق . . ولكنى كنت قد ذهبت إليه متأخرا فاضطررت إلى أن أبيت) . وعلى الرغم من الزمهرير الذى جاءت به رياح «الكوشافا» بعد لحظات هروبى، وجدت الشارع ، بالضرورة، أكثر صفاء .. ونقاوة ... بل أكثر دفءا .

* * *

ثم جاء الغيث . . من أعضاء جماعتى المرجعية . . أبناء وطنى الأعزاء الذين يعيشون فى مدينة بلجراد . وذهبت إلى مسكن السيدة زوركا التى تعرف من اللغات الأوربية مايزيد عددها على عدد أصابع اليد الواحدة .. وعرضت شروطها على . وعلى الرغم من فداحة هذه الشروط ، نسبياً ، فقد قبلتها دون مامناقشة .

والسيدة زوركا تعيش مع أمها ومع ابنها الوحيد . والأم سيدة عجوز احتفلوا بعيد ميلادها الثانى والثمانين قبل أن انتقل إلى مسكنهم بأسبوعين . وهى تبدو فى صحة جسمية وعقلية طيبة . وتعرف ثلاث لغات أوروبية. أما الابن فهو فى السادسة والعشرين من عمره ومازال طالبا فى الجامعة . . أى أنه مازال لا يعمل عملا يكتسب منه ، وحتى إذا ماتخرج فى الجامعة ، ويبدو لى أن هذا صعب المنال ، فإنه لن يعمل حتى يلبى داعى الوطن فيؤدى الخدمة العسكرية أولا .

وبيت السيدة زوركا هو عبارة ، فى الواقع ، عن شقة فى الدور الرابع

فى أحد المنازل التى تقع فى منتصف مدينة بلجراد القديمة . وقد بنى هذا المنزل فى عام ١٩٣٥ . . أى أنه عاصر حياة المدينة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها . . ، كما عاصر الحياة قبل الثورة . . وبعدها . وكان يملك هذا المنزل أحد الرأسماليين الكبار . . ، وعندما انتقلت ملكية هذا المنزل إلى الدولة . تغيرت حياة المالك السابق جذرياً . . وقيل إن زوجته قد فرت منه إلى آخر . . وانتهى به . . أى المالك . . المطاف إلى الاقدام على الانتحار . . ووجدوه مشنوقا فى صبيحة أحد الأيام . . تاركا وراءه ما كان يملك من بيوت ومن مصانع . وما كان لا يملك . .

وموقع المنزل مريح جداً فهو قريب جداً من المكان الذى أؤدى فيه مهمتى الرسمية ، وهو قريب ، أيضاً ، من الشوارع الرئيسية ومن الميادين الهامة فى المدينة . . فهو قريب ، مثلا من ميدان ترازيا المشهور . . ومن مبنى ألبانيا . ومحطة سكة حديد بلجراد على بعد خطوات منه . وفنادق موسكو والبلكان وكازينو على بعد دقائق منه سيراً على الأقدام . ويتاخم حدوده سوق الخضار .

وشقة السيده زوركا مكونة من ثلاث غرف كبيرة متساوية الحجم . . وتبلغ مساحة كل واحدة منها نحو خمسة أمتار مربعة . وتوجد فى كل حجرة المدفأة . . وهى عبارة عن بناء من البلاط القيشانى ، زيتونى اللون ، وتبلغ مساحته نحو نصف المتر المربع وطوله نحو المترين ، وبهذه المدفأة فتحتان . . فتحة يوضع فيها الفحم وهى الفتحة الكبيرة . . أما الفتحة الصغيرة فتتجمع فيها بقايا الفحم التى تتخلف بعد أن يشعل الفحم ويستهلك ، ولذلك تجد الفتحة الأخيرة تحت الفتحة الكبيرة بالقرب من أرضية الحجرة المصنوعة من خشب الباركيه . ويوجد بالشقة مطبخ واسع به كل

الأدوات الضرورية ، فضلا عن دورة المياه . . وهى عبارة عن مرحاض عادى وحوض صينى فوقه صنبور مياه يصب فيه ، إذا فتحته ، ماءاً بارداً فى الصيف وفى الشتاء على السواء ، كما يوجــد بدورة المياه ، أيضاً ، بانيو كبير مركب عليه سخان يوقد ، أيضاً ، بالفحم . وتوجد بالشقة ، أيضاً ، حجرة صغيرة يوجد بها الآن سرير صغير ومدفأة صغيرة وكرسى، ويبدو أنها كانت حجرة المخزن ، ولـكنها تستعمل فى الوقت الحاضر حجرة لنوم الأم العجوز . . وترى الأخيرة لا تبرح حجرتها هذه إلا أن تذهب إلى السوق فى الصباح المبـكر . . أو أن ترعى مدافىء الشقة ، ومنها مدفأتها بالطبع ، فهى التى تنظفها ، فى معظم الأيام ، من تراب الفحم المتبقى .. وهى التى تملأها بالفحم الجديد . . ثم تقوم بعملية الاشعال . وترعى الأم العجوز أو السيدة زوركا ، فى بعض الأحيان ، هذه العمليات من ساعة إلى أخرى . طوال النهار . . والجزء الأول من الليل .

أما إيجار هذه الشقة فيـكفى أن يعلم القارىء أنه يوازى أقل من ربع ما أدفعه إيجاراً عن الغرفة الواحدة التى أشغلها . .

وأثاث الشقة ، ولا داعى لوصفه ، أثاث قديم ولـكنه يبدو أنه كان أنيقاً . . وهو أثاث يتـكون مما هو ضرورى أو ربما أكثر من ذلك . ولـكن ما يسترعى الانتباه حقاً هو وجود الصور الفوتوغرافية واللوحات الزيتية العديدة المعلقة على الحيطان . . ومعظمها صور أو لوحات تحـكى قصة طويلة عن حادثات الزمان الغابر . . زمان ما قبل الثورة اليوغسلافية . وهى فى الواقع قصة حياة السيدة زوركا التى كانت . . أى أن أغلب هذه الصور وهذه اللوحات تحـكى قصة شخصية . فهذه صور فوتوغرافية للسيدة زوركا عندما كانت طفلة . . وعندما كانت شابة . . وعندما كانت مخطوبة .

وهذه صور حفل الزفاف . . مع زوجها تارة . . ووحدها تارة أخرى . صورة منها وهى جالسة . . وأخرى وهى واقفة .. وثالثة وهى مضطجعة. وهذه صور زوجها .. صورة وهو فى بدلة التشريفة وأخرى وهو راكب على حصان .. وثالثة وهويستعرض .. وصورةرابعة يصافحه فيها الأمير السابق بول . . أما الابن فصوره منذ الطفولة . . منذ أن كان رضيعا حتى مات أبوه . . وكان فى التاسعة من عمره عندما مات أبوه . والأم العجوز ها هى ذى صورها أيضاً . . عندما كانت طفلة بالمدرسة . . ، وعندما كانت شابة .. ثم أما صغيرة . ثم جدة . وتجد لها لوحة زيتية رائعة تترنم فيها ملامح جمال أنوثتها التى كانت بأعذب الألحان . . صورة فوتوغرافية ولوحات زيتية .. تحكى قصة حياة . . حافلة . . تبين الاضداد . وتوضح بالمقارنة الفروق . . تحكى عن الزمن وما يفعل بالناس . فى ملامحهم التكوينية . وما يفعل بهم فى ملامح شخصياتهم . وتحكى عن الظروف الاجتماعية عند ما تتغير .

وإذا نظرت إلى الألبومات الموضوعة على الموائد المعدة خصيصاً لذلك .. لوجدت فيها صوراً أخرى عن حياة السيدة زوركا . . فى إيطاليا . . وفى فرنسا .. فى نيس .. وفى مونت كارلو .. وفى أسبانيا . وفى الاسكندرية وفى بيروت .. والملابس التى كانت تلبسها .. والجواهر العديدة التى كانت تشغل حيزاً كبيراً من أعضاء جسمها . الرقبة . الصدر الناهد . الأصابع والرصغين . والاذنين .. تجد من هذا كله أنواعاً وأشكالا وأحجاما وتجد فى هـــذه الألبومات تعليقات الجرائد فى كل مكان زارته . . وفى بلدها على وجه الخصوص . عن ابتساماتها وعن إيماءاتها . . وعن ملابسها وألوانها .. وعن أنواع العطر الذى كانت تتعطر به فى كل مناسبة .. وتجد صورها فى الجرائد ، مع زوجها أو وحدها ، عندما كانت تشترك وهى متطوعة فى الصليب الأحمر .. وفى مؤسسات الأطفال . المؤسسات

التى كانت توزع اللبن . . وفى المسرح . . وفى الحفلات . . وفى السباق . .
وفى الأعياد الدينية . . وفى الأعياد القومية . . ومع الملك السابق . . ومع
الأمراء السابقين . . ومع الأميرات السابقات . ومع أعضاء حاشية الملك
السابق . . ومع رئيس الوزراء الأسبق . . الذى هرب من البلاد عندما
جاء هتلر إلى يوغسلافيا محاولا تحطيمها واستعبادها . . والذى أصبح الآن
يعمل فى إحدى جامعات الولايات المتحدة الأميريكية . .

* * *

والسيدة زوركا حريصة على الاحتفاظ بكل هذه الآثار . . حرصها
على الماضى الذى كان . . تحاول أن تعيشه كله . . أو حتى بعض مافيه . .
ولكن هيهات . .

فأنت تراها اليوم والحاضر يرغمها ارغاما على أن تعيش فيه بكل ثقله ..
تستيقظ فى الساعة السادسة صباحاً فى كل يوم . . وتنام عند منتصف الليل
وربما بعد هذا الوقت ، فى كل ليلة . . تراها تنظف الشقة . . كل غرفها . .
كل مكان وزاوية فيها . . تراها تغسل . . الملابس . . والأطباق . . وحتى
صندوق الزبالة . . تراها تقوم بعمليات المطبخ . . تراها تذهب إلى السوق .
تشترى الضروريات لا كما تشتهى . . بل فى حدود ما تملك من نقود . .
وما تجد فى الحوانيت من السلع المعروضة التى حددت أسعارها سلفاً . .
تراها منكبة على ماكينة الخياطة ساعات وساعات . تحيك ملابس أعضاء
أسرتها أو تعيد حياكتها حسبما يكون الموقف . . تراها تنزل إلى البدروم
وتحمل على كتفها كميات من الفحم . . كميات . . وكميات . . وهى إذ
تحمل هذا الفحم تحسبها تحمل طفلا رضيعا . . فهى تهدهده وتحنو عليه
وترعاه وتعنى به كل العناية . . ثم تراها تنظم الأثاث . . كل يوم تفعل ذلك
ويتغير نظام أثاث الغرف يوما بعد يوم . . وتحس التنسيق فيه فى كل

مرة .. وتعترف بأناقة اليدين اللتين تداعبانه .. وتؤكد الاعتراف بأصالة هذه الأناقة . . والورود وأنواع الزهور المتناثرة تجدها دائماً بضة طازجة منسقة . تبتسم لـكل من يراها . . وتستسلم لمن يداعبها . وكل ذلك من صنع يدى هذه السيدة . .

ويأتى المساء وما أسرع ما يأتى المساء . . والسيدة زوركا تتلهف إلى بعض الراحة . . لتقرأ الجريدة أو لتستمع للإذاعة . . ولـكن هيهات . . إن مكوى الملابس تدعوها وتلح فى هذه الدعوة . . فلا تخلد إلى الراحة أبداً حتى تدق الساعة الثانية عشرة . . إيذاناً بمنتصف الليل .

وهكذا يكون يومها وليلها . . عمل متواصل . . عمل جسمانى متواصل فى معظم الأحيان . . ومع هذا فإنها تجد الوقت الذى تستقبل فيه بعض الضيوف .. وتلاحظ ان اتجاهها نحو استقبال الضيوف اتجاه تنبعث منه المشاعر المتناقضة .. فهى ترحب بالضيوف . . وهى فى الوقت نفسه لا ترغب فى استقبال الضيوف .. أنها ترحب بهم لتقول لهم إنها ما زالت على قيد الحياة . . وإن الحياة مهما كانت قاسية فهى لم تقهرها بعد ، وأسمعها تتحدث إلى ضيوفها . . واستمع لضحكاتها التى تجاجل . . وما أعذب ضحكاتها . . وأنظر إلى عينيها وهى تقدم للضيوف المأكولات والمشروبات . . وانظر إلى عينيها وهى تلح فى دعوتهم إلى الأكل أو الشرب . . تجد لونا من ألوان الانتصار . . الانتصار على مرارة الحياة . . وانظر إلى ملابسها التى تلبسها أمام الضيوف . واستمع للتعليقات . . وكأنك ترى سيدة صالون تسيطر وتهيمن .. ولا تسخط هذه الصورة وتتذكر الصورة التى كانت عليها فى الصباح .. أو الصورة التى ستـكون عليها بعد ذهاب الضيوف . فهى فى الحالتين تـكون صورة إحدى نساء الغجر . . اللاتى يملأن . فى الوقت الحاضر ،

شوارع مدينة بلجراد .. والتى يفر منهن الناس ، فى بعض الأحيان . فرارهم من الأسد . .

ويذهب الضيوف . . وتراها شخصاً آخر . . تراها وسحب الكآبة والحزن تملأ وجهها الذى كانت تملؤه ، منذ حين ، البسمات والضحكات . . ثم تراها مزمجرة كأمواج البحر الهادرة . . وتبدأ تشكو ضياع الوقت . . والعمل لم يتم بعد .. ثم تراها تبكى .. وتروى قصة حياتها أو جزءا من قصة حياتها . . وتجدها أنها كانت فى حضرة الضيوف تمثل .. وترغمك على الشهادة بأنها كانت ممثلة عظيمة . . قد اتقنت دورها . . وما تلبث أن تنزع الميكياج وتغير ملابسها .. وتستبدل بها ملابس الواقع الذى تعيش فيه بكل ثقله .

* * *

وقد وضعتنى السيدة زوركا ، كما توقعت تماما ، تحت الاختبار ، فى خلال الأسبوعين الأولين من إقامتى بمسكنها ، وقد وضعتها أنا الآخر تحت الأختبار .. وقد فعلنا ذلك ، بالضرورة ، فى حدود علاقتنا الإجتماعية فهى المؤجرة وأنا المستأجر . . وهى مواطنة يوغسلافية تحمل ثقافة معينة ، وأنا مصرى عربى أحمل ثقافة أخرى . كانت تعد على حركاتى وسكناتى . كانت تفعل ذلك بنفسها فى بعض الأحيان ، وفى بعض الأحيان الأخرى عن طريق الأم العجوز .. فأنا موضوع تحت المراقبة .. والملاحظة .. عندما استيقظ من النوم .. وبعد أن أستيقظ من النوم .. عندما ألبس ملابسى وبعد ذلك .. عندما أخرج من الشقة إلى الشارع .. عندما أعود من الشارع إلى الشقة .. عندما أقرأ .. وعندما أكتب . . عندما أتناول شيئاً من الطعام .. وعندما اتعاطى شيئاً من الشراب .. وحتى فى أثناء نومى .. عرفت أننى اتحدث فى أثناء نومى . .

باللغات التى أعرفها . ، وهى عادة ظننت أننى أقلعت عنها ، وكانت تنصت لما أقول . . ، وقد اختلط عليها الأمر عندما سمعت حديثى فى أثناء النوم لأول مرة وحسبتنى مريضاً . . ثم يبدو أنها راجعت نفسها . . وعرفت الحقيقة . . وتحادثت مع ابنها فى هذا الموضوع . وبدا لهما . . هذا الموضوع وكأنه نكتة ضحكا لها كثيرا . .

ولم تحدثنى عن نفسها كثيرا فى هذه الفترة . . ولكنها كانت تردد اسم أحد المواطنين المصريين واسم السيدة زوجته . . فى كل مناسبة . . كانت تردد هذين الاسمين اعترافا بالجميل . . خصوصاً عندما أصابتها الظروف بالمحنة تلو المحنة . . ثم توجت ذلك بموت زوجها فى السجن فى عام ١٩٤٧ كانت تتحدث عن كرم هذا المواطن وتكرر الحديث عن نبله وعن نبل السيدة زوجته ماشاء لها الوقت أن تفعل ذلك . كان الحديث طويلا جداً . . كان حديثاً مفصلا . . يلخص من جانبها الاعتراف بالفضل لذويه . . ومن حيث هذا المواطن الكريم وزوجته الفاضلة يلخص الخلال السامية الرائعة ، كما تراها ، التى تجمعت فى شخصية كل منهما . . كانت ، كما قالت لى بعد ذلك ، لاتجد قوت يومها . . ولا ملابس تلبسها . . ولا مكان تنام فيه . . كانت تدخل السجن ، وقد دخلت السجن أربع مرات ، فإذا ماخرجت منه واجهت الهباء . واجهت اللاشىء . . واجهت الحرمان بألوانه . . وبكل ظلال هذه الألوان . . فكان مواطننا الكريم والسيدة زوجته الطيبة يأخذان بيدها . . ويحاولان أن يسانداها . . صلة للرحم ، كما يبدو ، أو صلة الإنسان بأخيه الإنسان فى صورتها المثالية كما ينبغى أن تكون . .

وكنت فى خلال فترة الاختبار أنظر إلى آثار أعمالها . . انظر إلى الحجرة التى أعيش فيها أجد النظافة ، كما أجد ملامح التنسيق ، فى كل زاوية

من زواياها .. وكنت أعيش تحت سقف آثار كل ذلك .آثار الجمال .. وآثار الذوق السليم.. فأشعر بالراحة تملأ زوايا نفسى.. وكنت، فى الوقت ذاته، أشعر بكل وسائل المراقبة التى تفرضها على السيدة زوركا . الوسائل المباشرة عن طريقها .. والوسائل غير المباشرة .. عن طريق الأم العجوز .. ولم آبه لشىء مطلقا .. فقد عرفت ذلك من قبل .. من الخبرات السابقة .. خبرات السيدات الفضليات فى لندن . وفى ضاحية وولتش وفى كارديف وفى هل وفى باريس . وفى بوستن . خبراتهن معى .. وخبراتى معهن .. ، كنت أقرأ وأكتب ، مثلا ، وإذا بالباب يفتح .. ثم يغلق .. وسيلة بدائية .. ساذجة . وكنت أذهب إلى دورة المياه .. فيدخل بعد أن أخرج من يدخل ليضبط آثار السيجارة التى أدخنها فلا يجد شيئاً .. كنت أشترى بعض الكتب وأتركها على المكتب دون أن أفتح اللفافة .. وعند عودتى أجد الكتب وقد وضعت على الرف المعد لذلك فى نظام معين وما على إلا أن أقبل هذا الوضع .. رضيت أم سخطت .. وآه من النور الكهربائى .. لابد أن أفتح لمبة معينة فى الساعة كذا . وأخرى فى الساعة كذا .. والمدفأة الكهربائية .. وهى ضرورة لابد منها لتشارك مدفأة الفحم فى تدفئة الحجرة فى أثناء الصقيع الذى يلف كل مكان فى المدينة .. وفى أثناء انهمار الثلوج المستمر من السماء .. وعندما تبلغ درجة حرارة الطقس ٢٠ درجة تحت الصفر .. وعندما تهب الرياح الشرقية التى تأتى بالزمهرير الرهيب .. لابد أن تشعل فى وقت معين .. وأن تغلق فى وقت معين .. إن الفاتورة يزيد مبلغها شهراً بعد شهر ، لقد كانت ٢٥٠ دينار فى الشهر الماضى وستصبح ٣٠٠ دينار أو أكثر من ذلك فى الشهر الحالى..أما الموسيقى ..فلا مانع..لتملأ المكان بالألحان . ولتصدح فى كل آن.. وآه عندما تأتى الأم العجوز بالفحم الجديد . وآه إذا كانت السيدة زوركا هى التى تقوم بهذه العملية . وهى تقوم بذلك فى بعض الأحيان.. فلتنصت آذان البشر إلى ثرثرتها .. إن هذا الذهب الأسود ..

هو مصاغها وحليها. هو حياتها ونور عينها..أنه أغلى من الحياة.. وأغلى من كل شيء .. إن ثمنه فى ازدياد مستمر .. إن العرض لا يكفى الطلبات .. إن الحياة ، بسبب ذلك ، قد أصبحت التفاهة بعينها.. يرحم الله أيام ماقبل الحرب.. كانت أياما . . مملوءة بالفحم . مملوءة بالسعادة . . كانت دنيا . . والآن ما أظلم الدنيا . . وما أقسى الدنيا .. وما على إلا أن أستمع لهذا ولغيره . . ومهما قلت ، أو حاولت أن أقول ، شيئاً . . فأنا لا أفهم .. أنا أغبى مخلوق بشرى بين البشر . . وآه لو قلت .. « تلك حال الدنيا وماعلينا إلا أن نحيا حياتنا بخيرها و بشرها » . أطالب فى الحال . . بهذا الخير الذى أتشدق به .. ماهو؟ وأين هو ؟ .. لقد كان الخير .. فيما قبل الحرب . وليس بعد ذلك .. أين هو الآن ؟ انظر إلى الاسعار التى ترتفع من حين إلى حين .. سعر الفحم مثلا .. سعر اللحم .. وأسعار ضروريات الحياة كلها ... وانظر إليها وهى تتحدث . . كل عضلة من عضـــلات وجهها تتحرك . . بل كل عضلة من عضلات جسمها المتكور تهتز وتكاد أن تتدحرج . . ثم تستريح برهة . . ولعلها أن تستجمع بعض قواها . . واستمع لها الآن . . تجدها فى لحظات تسرد عليك كل حوادث الأمس . انهيار منزل فى مدينة كذا . . واصطدام قطار الساعة كذا بآخر . . حادثة انقطاع التيار الكهربائى لمدة يومين فى مدينة كذا واستحالة القيام بالعمليات الجراحية الضرورية ، بسبب ذلك ، فى مستشفى كذا . . والمطار . . مطار بلجراد قد أغلق ثلاثة أيام سوياً . أسرة فلان تتضور جوعاً . . وأسرة علان ليس عندها فحم . . والفحم الذى دفعت ثمنه أسرة الجيران فى شهر مايو الماضى لم يصل إليها إلا بعد ثمانية شهور . . وما عليك إلا أن تستمع لهذا الحديث . . فى

كل يوم ، وموضوعاته ، فى كل يوم . فى تغير مستمر . أليست الحياة ، نفسها ، فى تغير مستمر كذلك ؟ وحتى إذا تغيرت الموضوعات فالنغمة هى هى . . والنتائج هى هى . . الحياة فى انهيار . . يوم القيامة ليس ببعيد . . استمع لها وهى تتحدث عن البريد وتأخير الخطابات . . وآه إذا ماذهبت إلى مكتب البريد لتسجل خطابا . . تراها والغيظ الشديد يرسم خطوطا على وجهها . . وهى . . خطوط تعبر عن السخط أو تعبر عن السخرية . . لقد ضاعت ساعة من الزمان فى تسجيل خطاب واحد . . إن عاملات مصلحة البريد أصبحن من غير المتعلمات . . حتى كتاباتهن فهى غير مقروءة . . الخط ردىء . . وهن إذ يكتبن يكتبن كالمبتدئات . . أين مصلحة البريد الآن . . وأين عندما كانت هذه المصلحة فى فترة ماقبل الحرب ؟ شتان مابين الحالتين . . وإذا كانت لبلدية مدينة بلجراد آذان فلتستمع للسيدة زوركا وهى تسب وتعلن . . ان الثلوج التى تنهمر من السماء أياما . . كانت كنتف من القطن عندما نزلت . . وأنظر إليها الآن وهى متراكمة . . متجمدة . . وبفعل أقدام الآدميين وغيرها . . أصبحت ملساء . . هنا يكمن الخطر . . هنا مصدر الحوادث . . تجد النساء ، رغم التحوط الشديد ، يقعن فى الشارع ، والرجال رغم الحذر ، ينزلقون وهم صرعى . . والصراخ فى كل مكان . . والعويل فى كل زاوية . . وأين البلدية ؟ أنها فى سبات عميق . ألا يأخذ الموظفون المرتبات فى كل شهر ؟ وهم يأخذونها حتما قاموا بواجباتهم أو لم يقوموا ؟ فعلى الدنيا العفاء . . والناس فى مدينة بلجراد فليذهبوا إلى الشيطان . . ، وعندما تعطل جهاز الراديو . . كان يوما حزينا . . وإذا حزنت السيدة زوركا يحزن كل من فى البيت . . ويحزن من فى خارج البيت من الأهل والمعارف . . حتى إذا لم يرغب أحدهم فى ذلك . . فهى ترغمهم على ذلك . . بمجرد أن تبكى . . يراها من فى البيت . . ويسمع بكاءها من تحدثه بالتليفون . . وإذا قلت ، مثلا ،

«إن الراديو مباع بضمانة لمدة عام .. والعام لم ينته بعد . . وما عليك إلا أن تذهبي به إلى التصليح » . فأنا رجل ساذج لا أعرف من الأمر شيئا . . لقد ذهبت به إلى التصليح بعد شرائه بأسبوع واحد وهى تكرر ذلك مرة أو مرتين فى كل شهر بعد ذلك . لاأحد يفهم . الناس أغبياء .. أو تتغابى إن المسألة ليست مسألة التصليح .. كلا .. ان المسألة هل يوجد فعلا من يستطيع القيام بهذا التصليح ؟ وان وجد .. فهل يقوم به بأمانة ؟ هذه هى المسألة أيها الساذج الذى لاتفهم .. أيها الغبى أو أيها المتغابى . . .

وسافرت السيدة زوركا ذات يوم إلى مكان ما خارج مدينة بلجراد . . وعندما عادت بعد يومين جاءت تقص على من فى المنزل بعض مارأت أو ربما كل مارأت فى خلال هذه الرحلة القصيرة . . كانت المحطة مزدحمة ازدحاما شديداً . . يملؤها جنود الجيش الذاهبين إلى مقار أعمالهم بعد أن قضوا الأجازة الأسبوعية فى المدينة . . مدينة بلجراد . . العاصمة . . محط أنظار الجميع وخصوصا الجنود الذين يفضلون قضاء أجازاتهم ، أسبوعية كانت أو غير أسبوعية فى باراتها وفى فنادقها وفى شوارعها كذلك . أما أهدافهم فهى واضحة ولا داعى إلى تبيانها أو الدخول فى تفصيلاتها . . حاولت السيدة زوركا حجز مكان فى القطار . . استغرق ذلك ساعة من الزمان . . وقد تصدع رأسها وكاد أن يتحطم . . الازدحام الشديد والأصوات الآدمية التى تنبعث باستمرار من أفواه أصحابها . . ورائحة دورات المياه . . وبرودة الرياح التى كانت تأتى من السماء . . فالمحطة لاسقف لها . . كل ذلك ، وغيره ، كان من عوامل تصدع رأس السيدة زوركا الصغير الذى كاد أن يتحطم . . واستمع لها وهى تصرخ محتجة على تأخير القطارين الرائح والغادى . . فالرائح لم يقم فى موعده . . تأخر أكثر من نصف

ساعة . . وعند الوصول تأخر خمسين دقيقة . . والغادى لم يكن أفضل من ذلك . . أين الشعور بالمسئولية ؟ . . مات الشعور . . يوم القيامة ليس ببعيد . . وعندما روت لى كيف ضاعت منها قطعة من النقود ذات الخمسين دينارا . . لم أتمالك نفسى وضحكت . . ويبدو أننى كنت أرغب فى الضحك فضحكت . . على الرغم من نظراتها النارية . . كثيرا . . كأن الهستريا قد أصابتنى فجأة . . واضطررت بعد فترة إلى أن أضبط مشاعرى وأنصت لما تقول . . رغبت ، وياليتها مارغبت ، فى شراء نوع معين من السجاير . وجدته فى إحدى الماكينات التى تبيع السجاير ، بأنواعها المختلفة ، أوتوماتيكيا . والسيدة زوركا ، فى الواقع ، لا تدخن ، وإنما أرادت أن تفاجىء ولدها وتشترى له علبة من السجاير من النوع الذى اعتاد على تدخينه . . وأنت إذا رغبت فى أن تتعامل مع هذه الماكينة فما عليك إلا أن تضع فى ثقب معين قطعتين من النقود ذات الخمسين دينارا ، وقيمتهما توازى ثمن العلبة ، ثم ما عليك بعد ذلك إلا أن تجذب أحد الأبواب الحديدة .. ويكون بالضرورى ، الباب الذى يختص بنوع السجاير الذى ترغب فى شرائه . . فاذا ما تم الجذب . وجدت علبة السجاير من هذا النوع فى متناول يديك وتستطيع أن تخرجها بعد ذلك فى سهولة وفى يسر . أما إذا لم يتم الجذب فانك تستطيع أن تضغط على زر معين مثبت لهذا الغرض فى الماكينة . فتحصل على نقودك . . ويبدو من حديث السيدة زوركا أن جذب الباب المختص بنوع السجاير الذى كانت ترغب فى شرائه لم يتم . . وكثيرا ما يحدث هذا . . وأنها عندما أرادت إعادة نقودها ضغطت على الزر المشار إليه ولكن لم تظهر سوى قطعة واحدة من النقود ذات الخمسين دينارا . . أما القطعة الثانية فقد بلعها المحيط . . أو سرقتها الماكينة على حد قول السيدة زوركا . . وآه من من تعليقاتها . . بعد ذلك . . أين

الأخلاق ؟ أين الشرف . . ؟ هذه هي السرقة بعينها . . تصور أن الدولة تسرق . . الحياة فى انهيار . . يوم القيامة ليس ببعيد . . .

* * *

ويبدو أن فترة الاختبار ، فى خلال الأسبوعين الأولين ، قد انتهت على خير . . لأننى قبلت الأمر الواقع على علاته . . ولأنها . . أى السيدة زوركا ، وأنا فى نظرها أمثل رغيف العيش ، قد قبلتنى على علاتى كذلك . . ولكن لوح الثلج الذى بيننا ، هذا اللوح الذى يوجد دائما بين الناس فى مثل الظروف التى أواجهها وتواجهها معى السيدة زوركا ، هل تحطم ؟ هذا مابدا لى ، فى عيد « السلافا » . . .

وعيد السلافا هذا أثر من آثار الماضى البعيد . . قبل ظهور الديانة المسيحية . . وموضوعه طويل . . وإذا لخصناه هنا نقول إن الناس قبل ظهور المسيحية ، الصربيون منهم وغيرهم ، كانوا يتخذون من الآلهة عددا يعبدونه . . ويتقربون إليه . . كل قبيلة . . وكل عائلة أو أسرة لها إله معبود . . وأتت المسيحية واعتنقها الناس . . ولكن عادات الجاهلية بقيت معهم . . واستبدلت كل أسرة بإلهها المعبود ملاكا من الملائكة راعياً لها . . كل أسرة لها ملاك معين ، الأبناء والبنات يتخذون ملاك أبيهم راعيا لهم . . والزوجة تتخذ ملاك أسرة زوجها راعيا . . وكل أسرة تحتفل بملاكها أياما فى كل عام . . حيث يجتمع الأهل والصحاب يأكلون ويشربون ويهنئون . وفى ٢١ نوفمبر من كل عام . والثلاثة الأيام التى تليه . . تحتفل السيدة زوركا بملاكها « ميكائيل » هى وابنها بالضرورة . . أما الأم العجوز فأيام احتفالها أيام أخرى لأن ملاكها المحتفل به ملاك آخر . . وكل أسرة فى الحى تفعل ذلك . . ومعظم الأسر فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر تحتفل بهذا العيد . . عيد السلافا . . كل حسب ملاكه . . وكل فى الوقت المخصص

لهذا الاحتفال . . ولعل الاحتفال بعيد السلافا ، على الرغم من الظروف الاجتماعية التى يواجهها المجتمع اليوغسلافى المعاصر . أن يستمر إلى حين. وإذا كان الناس فى يوغسلافيا يحتفلون بهذا العيد فأولى بذلك أن تكون على رأس القائمة السيدة زوركا . وتعال أنظر إليها فى الأيام السابقة على ٢١ نوفمبر فى هذا العام . . وفى الأيام اللاحقة له . . لا يشغلها شىء عن عيد السلافا .. كل اهتماماتها مركزة عليه .. ماذا تقدم من طعام .. ومن شراب من تدعو ومن لا تدعو ؟ تنظيم الشقة . . أين تضع هذه القطعة من الأثاث ؟ وأين تضع تلك ؟ . . والورود والزهور . . وعمليات التنسيق والتجميل . تسير فى كل آن . . والخروج إلى السوق لشراء المطلوبات . . والتحدث فى التليفون . . واستقبال الناس . . والحديث معهم . . والموضوعات التى يتضمنها هذا الحديث . كل هذه الأمور وغيرها كانت شغل السيدة زوركا الشاغل . . كانت تعمل وكأنها القائد . . والجميع . . من فى الشقة وأنا منهم. جنود . . عليهم أن يطيعوا القائد . . ، وخرجت فى صبيحة يوم ٢١ نوفمبر على أن أعود . . وعدت وفى يدى هدية مناسبة . . وبدا لى أن عودتى كانت غير مطلوبة . . وبحثت عن حجرتى فلم أجدها . . أصبحت حجرة لاستقبال الضيوف . . وأين كتبى . . ؟ وأين ملابسى ؟ وأين حاجياتى ؟ لقد بلعها الشيطان . . إننى شخص ضائع . ، لا مكان لى فى هذه الشقة . . مجرد أحدهم . . . ولكن الهدية غير المتوقعة قبلت مع الشكر . وجلست مع الجالسين والجالسات . . وسمعتهم يتحدثون ويتحدثون ولم أعرف فيم يتحدثون ؟ . وانظر إلى السيدة زوركا فى ملابس العيد . . كانت عروساً مجلوة يهتم بها من حولها . . وهى توزع عليهم النظرات والابتسامات . . وتشترك معهم فى الحديث . وتضحك . وما أعذب ضحكاتها . . وتراها فجأة تبكى . . وهى تبكى دائماً عندما تتذكر زوجها . . وكل من حولها يذكرها بزوجها . . فهم أقارب أو أصدقاء يمتون إلى الأسرة بصلة وثيقة .

وانظر إليها وهي تعود إلى دورها .. دور العروس .. وكأن ما كان لم يكن . . يهتم بها من حولها . . وهي توزع عليهم النظرات والابتسامات وتشترك معهم في الحديث . . أو تدعوهم إلى الطعام . . أو إلى الشراب . . ويذهب الضيوف . . ويأتي غيرهم . . كل يوم . . في خلال أربعة أيام . . وأنا أشترك مع الأسرة في حدود دوري .. أن أجلس .. وأن أكون موضوعا لبعض الحديث . . وإذا تيسر لي تبادلت الحديث . . وأن أعيش كشخص ضائع لا مكان لي في الشقة التي استأجر فيها إحدى الغرف وأدفع إيجاراً شهرياً مرتفعاً في نظير ذلك ..

وان أنس لا أنسى عندما قيل إلى إن القسيس سيحضر في الصباح الباكر .. وانتظر الجميع القسيس في الموعد المحدد . . ولكنه لم يحضر . . واسمع الصراخ . . واسمع العويل . . إنه لم يحضر . . وأخيراً رؤى وهو يدخل المنزل . . وانفجرت الأسارير . . وبانت الابتسامات على الوجوه . . وتعالت الضحكات . . واستعد الجميع لإستقبال القسيس . . وكنت أنا منزويا في أحد الأركان . . أرى الجميع ولا يراني أحد . . ولكن القسيس لم يحضر . . أين ذهب ؟ آه إن أسرة الجيران تحتفل أيضاً بعيد السلافا . . لا بد أنه ذهب إلى أسرة الجيران . . ولكن لماذا لم يأت إلى أسرة السيدة زوركا أولا ؟ . . حتى القسس يعرفون المجاملة ؟ . . حتى ولو كان ذلك على حساب السيدة زوركا ؟ وجاء القسيس أخيراً ورحب به الجميع . . وكنت لا أزال منزويا في أحد الأركان . . وسمعت تلاوة الصلوات يتلوها القسيس ويساعده شخص آخر . . صلوات تشبه ما يفعله القساوسة والأقباط في مجتمعنا . . عندما يصلون . . نفس الترانيم . . نفس الألحان وأحسست بالعزلة الثقافية الرهيبة . كنت في واد وهؤلاء في واد آخر . كانت السيدة زوركا وابنها يحملان كعكة عملت خصيصاً بهذه المناسبة . . أما الأم العجوز فهي واقفة بجوارهما . . والجميع منحنو الرؤوس في خضوع . .

وترتفع عقيرة كل من القسيس ومساعده من آن لآخر . . وتملآن جو الشقة ألحانا وترانيم كنائسية . . وأنا فى هذه الفترة . . أسمع وأرى . . ولا أدرى ماذا يفعلون ؟ . . كنت فى عزلة ثقافية رهيبة . . وصب القسيس قليلا من النبيذ ثم كسر الكعكة . . وعند ذلك دعتنى السيدة زوركا . . وحضرت المشهد الختامى ورأيت تبادل التحيات . . والقبلات تنهال على يد القسيس . . وبعد خروج القسيس ومساعده . . لاحظت شمعة طويلة موقدة أخبرتنى السيدة زوركا انها ستظل موقدة حتى موعد النوم . . عندئذ تقوم هى ويقوم ابنها بإطفائها معاً . . ولكن الذى أطفأ الشمعة فعلا عند موعد النوم كان شخصاً واحداً . . كانت السيدة زوركا وحدها . . أما ابنها فقد كان فى الخارج انتظرته . . وكان أن هدها التعب وغلب عليها النوم فاضطرت إلى أن تطفىء الشمعة وحدها وهى ساخطة مزمجرة . .

وانتهى عيد السلافا بكل ما فيه . . بخيره وشره . . وحلوه ومره . بالابتسامات والضحكات . . وبالأحزان والبكاء . . وحاولت أن استفسر منها عن هذا العيد . . واعرف شيئاً عن أصله وتاريخه بالتفصيل . . فلم أجب إلى طلبى . . وعندما حاولت أن أبدى بعض الملاحظات عن مدى أهميته . . وضرورته : . صرخت السيدة زوركا فى وجهى وقالت وهذا بعض ما قالت ، إن عيد السلافا عندها أهم الأعياد . دينية كانت أو غير دينية . ، إنه عيدها . . عيد زوجها . . عيد ابنها . . إنها تحياه بكل مشاعرها . . وتعيش فى خلال أيامه بكل كيانها . ولما قلت إنه عيد يمت إلى الجاهلية بنسب عريض فلماذا كل هذا الاهتمام به وكل هذه الأهمية له ؟ أو ما معناه . . ردت على حانقة ساخرة . . ردها التقليدى . . « أنت لا تفهم شيئاً . . أو أنك تفهم ولكنك تتغابى . . » . . ومرت الأيام وبدا لى أن لوح الثلج الذى بينى وبين السيدة زوركا قد تحطم . . ، ألم اشترك معها ، قلباً وقالباً ، فى الاحتفال بعيدها المفضل ؟ ألم أحيا فى

شقتها لمدة أربعة أيام وأنا كالشخص الضائع . . ولا مكان لى فيها إلا بعد ذهاب الضيوف ؟ . . ألم اؤد دورى الذى رسمته لى أداء لاغبار عليه ؟ ألم اشتر لها هدية بهذه المناسبة السعيدة ؟ وما نحن إلا بشر إذا قبلتنى قبلتك . . وإذا قبلتك قبلتنى . . إلا أن يكون أحدنا شخصـــاً غير عادى . . والأشخاص غير العاديين فى الدنيا قليلون . أو هم كثيرون ؟ . . ومهما يكن فقد بدا لى أن السيدة زوركا من أعضاء البشر العاديين فقد بدأت ، فى ضوء كل ما فعلت فى أثناء عيد السلافا المشار إليه ، عملياً ، بقبولها على علاتها . . وأحسست بعد انقضاء فترة العيد أن السيدة زوركا قد قبلتنى . . أى قد كفت عن مراقبتى وملاحظة حركاتى وسكناتى . وبدأت تفاجئنى بفنجان من القهوة مرة كل يوم . . وأخيراً وليس آخراً كثر حديثها عن نفسها لى .. أما الشكاوى من الدهر . . وما يتبع ذلك من بكاء . . وثرثرة لا نهاية لها فحدث عن ذلك ولا حرج . . الموضوعات . . مختلفة . . ولكن النغمة هى هى .. والنتائج هى .. هى . الحياة فى انهيار .. يوم القيامة ليس ببعيد ..

حدثتنى عن أيام خطوبتها وكانت اذ ذاك تبلغ نحو السابعة والعشرين من عمرها . . واستمرت الخطبة ثلاث سنوات . . وعن زواجها الذى استمر نحو عشر سنوات .سنوات السعادة والهناءة .. وحدثتنى عن زوجها الذى كان ضابطاً ملحقاً بالسراى . . وعندما جاء هتلر اعتقل . . وسجن . . ثم آثر التعاون مع النازيين الأشرار ضد أهل بلاده . . وقاد الأذناب من اليوغسلافيين (التشيكنيك) . . ولما انتصرت القوات الشعبية فى يوغسلافيا قبض عليه وسجن حتى مات فى عام ١٩٤٧ .حدثتنى عن آثار موت زوجها على حياتها . . وعن سجنها نحو الأربع مرات . . وسجن الأم العجوز مرتين وسجن ابنها وكان صغيراً مرتين مع جدته . . حدثتنى عن الحب الدائم الذى يربطها بزوجها وهو حى وبعد أن مات . . وأنها آثرت عدم الزواج مرات

ومرات صيانة للذكرى العاطرة التى كانت ، وما زالت ، تربطها بزوجها الخائن . . وأنها آثرت ، من باب أولى ، أن لا تكون خليلة لأى شخص من الأشخاص . . كانت تتحدث معى فى هذا الشأن وكان حديثها الدموع والآهات .... ومع ذلك فقد كانت تبدو لى فى بعض الأحيان أنها نادمة على عدم الزواج . كانت تكرر عبارة «لقد كنت غبية حمقاء» . . وكانت بعد أن تقول هذه العبارة ، فى كل مرة . تتبع ذلك بقولها توا ، وكأنها تخرج بعض وساوسها إلى النور ، أو تبدى الحرص أو تسلك سلوك الأذكياء . . . « وحتى لو كنت قد تزوجت كان من الجائز أن اختلف مع زوجى عندذلك ماذا كنت أنا فاعلة . أنه لن يترك البيت . ويظل كابوساً فى بيتى غير مرغوب فيه » . وهى تعنى فى الواقع أن القانون يحتم أن يشغل الشخص شقة واحدة سواء كانت شقة ذات حجرة واحدة أو أكثر من ذلك . . وكل شخص ، المتزوج وغيره ، إذا كان سعيد الحظ ، له شقة مسجلة باسمه . . والزوجان لها شقة . . فإذا ما انفضت الزيجة بالطلاق مثلا . . بقى الزوجان تحت سقف واحد . . حتى تحكم المحكمة لأيهما أن يبقى فى الشقة . . وحتى بعد صدور هذا الحكم ، وهو يصدر عادة لصالح المستأجر القديم ، فان الشخص الذى عليه أن يخلى الشقة يبقى حتى يجد له شقة مناسبة . . ويبقى ماشاء الله فى الشقة القديمة حتى يتم ذلك . وتعاودها الابتسامة تضىء وجهها . . كأنها ابتسامة الظفر على المجهول . . فهى بحرصها واستخدام ذكائها قد منعت نفسها ، عن وعى ، من أن تواجه هذ الموقف الحرج . . وكان من المؤكد إذا حصل ذلك ، أنها لاتستطيع أن تؤجر من الباطن احدى غرف شقتها وهى الآن من الإيجار من الباطن تعيش . . فهى لا معاش لها . . ولا لإبنها معاش كذلك . . وأن كان للأم العجوز معاش . . تراه السيدة زوركا ضئيلا جداً . .

والسيدة زوركا لا معاش لها لأنها لم تعمل قط فى حياتها . . ولا معاش

لابنها لأنه مازال طالباً فى الجامعة لم يعمل حتى الآن . . . وهى أولا وقبل كل شىء أرمل خائن . . وهو أولا وقبل كل شىء ابن خائن . . ، وحاولت السيدة زوركا أن تعمل . . فلم تستطع . . حاولت فى كل المجالات . . حتى كعاملة تليفون . . ولكن الظروف أبت ذلك عليها . . ولما كانت لا تعمل بل ولم تعمل . . ولما كان ابنها لم يعمل . . فكل منهما مستبعد من رعاية الضمان الاجتماعى الذى لا يرعى إلا العاملين . . والعاملات . . فضلا عن أصحاب المعاشات فى المجتمع اليوغسلافى المعاصر . . وما أسعد الأم العجوز إذا حاولنا المقارنة بين الثلاثة . . فبنت الثانية والثمانين أصبحت الدجاجة التى تبيض الذهب عند الملمات . . وما أكثر الملمات التى تواجهها السيدة زوركا ! إن أهم ما تواجهه هذه السيدة هو المجهول . . والأسلحة التى تستخدمها . . والدرع الذى تحتمى به . . اللاشىء . . الهباء . . والماضى . . وما أهون الماضى فى ضوء الحاضر !

أنظر إليها وهى تبكى . . وما أكثر ما تبكى . . وقد بكت مرة وكان بكاءاً مراً عندما لم يدفع المستأجر السابق للغرفة التى أستأجرها أجرتها المؤجلة فى الموعد المحدد كما وعد . . وقد دفعها بعد الموعد بقليل . . ولكنها تدعو البكاء بمناسبة وبغير مناسبة . . وما أسرع أن يلبى البكاء دعوتها ترى الدموع تنهمر . . وكأنها أمطار السماء . . . والخروج والدخول يستمران . . الخروج من غرفة والدخول إلى أخرى . . وكأنها تولول والمحادثات التليفونية الباكية تنهال . . والحديث يستمر . . مع الحاضرين ومع الغائبين عندما يحضرون . . ومع الجيران . . وقد يستمر الحديث مع نفسها . وكما جاءت العاصفة فجأة فإنها تذهب فجأة كذلك . . وتدور عجلة العمل المنزلى ... وهى فى دوامة العمل تجدها تستكين . . ، ثم تجىء عاصفة أخرى . . لا يوجد فحم فى المنزل . . الفحم الباقى يكفى أياما معدودات . . وتنهمر الدموع . . وكأنها أمطار السماء . . وتستمر المأساة حتى يجىء الفحم

ولكنها تدعو البكاء بمناسبة وبغير مناسبة .. وما أسرع أن يلبى البكاء دعوتها ! فلان من المعارف مات .. وترى الدموع تنهمر .. وكأنها أمطار السماء . والخروج والدخول يستمران .. الخروج من غرفة والدخول إلى أخرى . وكأنها تولول .. والمحادثات التليفونية الباكية تنهال .. والحديث يستمر .. مع الحاضرين ومع الغائبين عندما يحضرون .. ومع الجيران .. وقد يستمر الحديث مع نفسها .

* * *

وكنت أشاهد كل هذه الأمور .. وكل هذه الأفعال ... ، وكنت أشترك فيها فى أغلب الأحيان . فانا ابتسم إذا كان المجال يوجب الإبتسام ، وانا أحزن ، أو أبدى معالم الحزن ، إذا اضطررت تحت الحاح الظروف إلى فعل ذلك .. وكان حديثى قليلا نسبياً .. وإذا تحدثت اختار الكلمات فى لباقة .. وانتهز الفرصة المناسبة للادلاء بها .. وكنت فى بعض الأحيان وكأن العدوى قد أصابتنى ، أو ابكى أريها أن الناس فى الهم شرق ، أشكو إلى السيدة زوركا .. كنت أحدثها ، مثلا ، عن الأمم المتحدة التى أنا فى الواقع ضيفها .. فقد منحتنى منحة الزمالة التى جاءت بى إلى يوغسلافيا ، وأذكر لها أننى لم أستطع أن أقابل مسئولا واحداً فى مقرها فى مدينة بلجراد .. منذ أن حضرت إلى المدينة .. وحتى بعد حضورى إلى المدينة إلى الوقت الحاضر ويبدو أننى لن أقابل مسئولا حتى بعد سفرى إلى بلادى ، وكم حاولت أن أقابل أحد المسئولين فلم يستمع لى أحد .. إن البرنامج العلمى الذى يجب أن يضعه المسئولون فى هذه الهيئة أنا الذى وضعته لنفسى .. وذكرت لها كيف يتعنت الموظفون الصغار خصوصاً موظفو الحسابات الذين يدفعون لى مرتبى فى كل شهر .. يحددون لى موعداً وأحضر فيه على الرغم من المشاغل الأخرى .. وأضطر إلى أن أحضر مرة ثانية ومرة ثالثة لأن الموظف المختص لم يؤد واجبه كما يجب أن يؤدى .. ولم يف بوعده

الذى قطعه على نفسه . . ، وكنت أحدثها عن الشخص الذى عين لمرافقتى فى كل مكان فى يوغسلافيا . . كنت أشكو إليها بعض تصرفاته . . فهو لايحضر فى الموعد الذى نتفق عليه قط . . لابد أن يتأخر . . وأنا أدفع ثمن كل ما يأكل وكل مايشرب ولم يحاول قط أن يدفع مرة واحدة حساب ما يأكل وما يشرب . . وهو مع ذلك شاب فى الثلاثين أو نحو ذلك . . وهو يؤدى عملا ذا مسئولية كبيرة . . وهو يتكسب دخلا هو وزوجته كافيا وأكثر من كاف . . كنت أحدثها عن مغامراته ، على الرغم من أنه متزوج وأب ، مع البنات والنساء . وحتى مع المومسات فى الشارع . . وحدثتها ، ويبدو أننى ارتكبت خطأ شنيعاً ، عن الفندق الذى نزلت فيه فى مدينة « كروشيفاتس » « فندق أوربا » أشهر فنادق المدينة . حدثتها عن المياه الباردة فى الصنابير وعن دورة المياه المملوءة بالقاذورات الآدمية . والشباك المكسور رغم الزمهرير والثلوج . ووصفت لها سرير النوم والخرق البالية المفروشة عليه . . كل ذلك على الرغم من الأجرة الباهظة التى دفعتها .

* * *

وهكذا كنا نتبادل الأحاديث . والشكاوى سجالا . . فترة من الزمان ، وكانت أحاديثها ، بالضرورة ، أكثر . وكانت شكاواها ، فى ضوء ظروفها أعظم . . ومهما يكن فلم ينسنى كل ذلك قصة احدى السيدات اليوغسلافيات ، كانت تعيش فى مجتمع ماقبل الثورة وفى أثناء الثورة . . ولدت فى مدينة « تيموتشكا كرانيا » فى شرق جمهورية صربيا لأبوين فقيرين . وكانت كبرى أخواتها وأخوتها الأربعة . . كانت طالبة بالمدارس الثانوية . . وكانت تعطى الدروس الخصوصية لتساعد الأسرة . . وفى عام ١٩٤٠ أصبحت طالبة فى كلية الطب . . فى عام الحرب . . وثار الطلبة والطالبات ومنهم بنت تيموتشكا كرانيا . . وجرحت . وجاءت إلى البيت . وجاء الألمان إلى المدينة ورحلت الأسرة إلى قرية جبلية حيث لها يوجد منزل . . وأسر

الألمان زملاءها وزميلاتها . . وهرب الزملاء والزميلات من الأسر . . وذهبوا إلى منزلها فى القرية الجبلية . . حيث تولت قيادتهم . . وتنظيم صفوفهم . . وأهتم بها النازيون ومن يتعاونون معهم من اليوغسلافيين . . (التشيكنيك) . . وقبض عليها . . وهتك عرضها . . وعذبت . . قطع ثدياها . . ثم أنفها . . ثم أذناها . . ثم عنقها . . وماتت . . وبعد انتصار الأحرار حوكم التشيكنيك . . جلادوها . . وحكم عليهم . . ووضعوا فى السجن . وكان محافظ السجن أخوها . . وبعد أن أعيدت تنشئتهم الاجتماعية أمضى على الوثيقة بيده . . وثيقة الحياة . . أطلق سراحهم . . وهو يعرفهم وهم يعرفون . .

لم تنسنى أحاديثنا وشكاوانا المتبادلة . . هذه القصة . . قصة بنت تيموتشكا كرانيا . . كانت دائمة . فى واعيتى . . كانت موجودة باستمرار لم تبرح مكانها . . كنت أذكرها عندما تتحدث إلى السيدة زوركا وعندما تشكو إلى . وكنت أذكرها عندما أواجه المضايقات . . وكثيراً ما كنت أواجه المضايقات . كنت أذكر امضاء الشقيق وأقارنه بامضاء ترومان المشهور . . أمضى الشقيق وثيقة الحياة أو اعادة الحياة . . وكان امضاء ترومان يعنى الموت ودمار الحياة . . فى هيروشيما . . وفى نجازاكى . ان المواقف ، وحدها ، هى التى تصنع النوايا . . وهى وحدها أيضاً ، التى تقرر الشر وتقرر الخير . .

* * *

وآن لى أن استعد للرحيل من يوغسلافيا . . وكنت سعيداً مغتبطاً لذلك . . كنت أؤدى دور الضيف فى هذه البلاد . . وأنا لم أمارس القيام بهذا الدور كثيراً فى المجتمعات الأجنبية . . وأحسست بثقل هذه المهمة . . فأنا أعيش فى ظروف اجتماعية مختلفة ، وانا أحيا فى مناخ ثقافى متباين . . وحرصت كل الحرص على أن تكون صلاتى بأعضاء المجتمع

اليوغسلافى على أسس سليمة .. وكان حرصى على سلامة صلتى بالسيدة زوركا حرصاً كبيراً .. واعترف للقارىء اننى فعلت ذلك على حساب أعصابى .. وقد فعلت ذلك أيضاً ، فى بعض الأحيان ، على حساب بعض ما أملك من نقود .. والحساب الأخير يهون .. ولعل القارىء أن يحدس فى ضوء كل ماسبق ، مادفعت من حساب الأعصاب .. ، وهو حساب لايقدر بثمن . كنت أدفع هذا الحساب منذ أول يوم .. حتى قبل أن أرحل بيوم واحد أو أقل من ذلك .. ولأكن صريحاً وأذكر ما حدث فى ذلك اليوم .. طالبتنى السيدة زوركا بدفع نصف ثمن التيار الكهربائى عن ثلاثة شهور .. وذلك نظير ما استهلكه « البيك آب » فى خلال فترة إقامتى فى بيتها .. وكانت هذه المطالبة مفاجأة لى .. ولكنى دفعت قيمة ماطلبت صاغراً .. على الرغم من أن الاتفاق بينى وبينها لايجيز ذلك، وحسبت أن السلام قد عاد بينى وبين السيدة زوركا بعد ذلك .. ولكنى فوجئت بطلب آخر .. لم أكن أحسب له حساباً .. كان موعد الرحيل فى أحد الأيام الأوائل من الشهر .. فطالبتنى السيدة زوركا بدفع أجرة الشهر بأكمله .. وأبت عليها نفسها أن تستلم ماتستحقه من أجرة الأيام الأولى من الشهر فقط .. هنا اسقط فى يدى .. فأنا لا أملك ماتطلب .. وحتى إذا كنت أملك فلا على أن أستجيب لهذا الجشع .. فأنا لا أحصل على مرتب شهرى ثابت من هيئة الأمم المتحدة ، وإن كنت أقبض مرتبى فى كل أول شهر .. فهيئة الأمم المتحدة تدفع لى منحة يومية معينة إذا كنت أعيش فى مدينة بلجراد ، وتتغير هذه المنحة إذا كنت أجوب البلاد اليوغسلافية مسافراً . ويتغير المرتب الشهرى الذى أحصل عليه وفقاً لذلك، ويتغير أيضا وفقا لعدد أيام الشهر وقد قبضت مايعادل نصيبى ، فى هذا الضوء ، عن الأيام الأولى من الشهر فقط .. وهاهى ذى السيدة زوركا تطالبنى بما لا أطيق .. وأنظر إليها وهى تبكى .. أنظر إلى دموعها التى

تنهمر .. وكأنها أمطار السماء .. والخروج والدخول يستمران .. الخروج من غرفة والدخول إلى أخرى .. وكأنها تولول ! وأنظر إلى وأنا أعيش اليوم الأخير فى مدينة بلجراد .. كنت أواجه موقفا لم أكن أتوقعه .. وكثيراً ماحدث لى ذلك .. ولكن المواقف قلما تتشابه .. كنت أتأمل السيدة زوركا وهى أمامى .. ثم أحدث نفسى حديثا صامتا .. كانت تملأ نفسى المشاعر المتعددة .. مشاعر الغيظ والكمد والحزن والرثاء جميعا .. وكان احساسى بالمسئولية وأنا أمثل دور الضيف فى المجتمع اليوغسلافى فى اللحظات الأخيرة يملأ على كيانى . .

ولم أعدم أن أجد حلا . . فالمشاكل . . كل المشاكل لها ، بالضرورة، حلول . . ولكن المهم أن نحس بهذه المشاكل . . ونحاول أن نتعرف عليها لكى نفهمها . . وقد أحسست بالمشكل الذى كان يواجهنى . . وحاولت أن أتعرف عليه لكى افهمه . . ووضحت الرؤية أمامى وتأكدت من أنه إذا كانت السيدة زوركا تعيش فى ماضيها مازال . . فانا الحاضر يرغمها على أن تهرب من الماضى ، كله أو بعضه ، وتعيش فيه . . أى فى الحاضر . . بكل ثقله . وهكذا أصبحت سيدة البيت التى كانت رغباتها ، فى يوم من الايام ، فى ظل نظام اجتماعى معين ، أوامر . . مجرد سيدة إذا أمرت فهى فى الواقع ترغب وترجو ، وأصبحت السيدة زوركا ، أيضا ، على الرغم منها ، مثل كل السيدات اللاتى يؤجرن غرف بيوتهن للغرباء . أصبحت كالحلاق الذى اضطر إلى أن يغير مهنته . فى سبيل لقمة العيش ، فأصبح جزارا . .

* * *

تصويب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	٢١	وأرجوا	وأرجو
٢٤	١٩	إذا	وإذا
٦٣	٨	الفندق	الفندق
٧٩	١٠	لوبيانا	لوبيانا
٨٠	١٥	ديناراً	دينار
٨١	٣	دينار	ديناراً
٨١	٦	دينار	ديناراً
٨١	٧	١٠ ٠٠	١٠٠٠٠
٨١	١٦	دينار	ديناراً
٨١	١٩	ديناراً	دينار
٨١	٢٠	دينار	ديناراً
٨١	٢١	دينار	ديناراً
٨٣	١	تعير	تغير
٨٤	١٠	٥ر ٥ ٪	٥ر٠٥ ٪
٩٢	٩	ترسل	يرسل
٩٤	١	وعير	وغير
٩٩	١	التجري	التجريد
١٠٣	٢	عشر	عشرة
١٠٣	٦	صغير	صغيراً
١٠٦	١	أخر	آخر
١٠٩	٢	أن	إن
١٢١	١٥	السيده	السيدة
١٣٥	٢١	والاقباط	الاقباط
١٣٨	٢	آ ثرت	آثرت
١٤٠	٩	بوجب	يوجب
١٤١	٢٤	لها يوجد	يوجد لها
١٤٢	١١	دائمة	دائماً
١٤٤	١٨	اللابى	اللاتى